الفصل السابع
مؤسسات الدولة وأبرز العاملين فيها

1- توطئة حول مفهوم سياسة الحكم والادارة عند الفاطمين .
2- العمال وتعيينهم .
3- ادوار المعز لدين الله الادارية والدعوية
4- دور قبائل كتامة.
5- الصقالبة .
6- القضاء.
7- السياسة الضرائبية والمالية.
8- ابرز رجالات دولة المعز لدين الله .
9- القائد جوهر.
10- الاستاذ جوذر.
11- القاضي النعمان.
12- يعقوب بن كلس.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

مؤسسات الدولة
وأبرز العاملين فيها

توطئة حول مفهوم سياسة الحكم والادارة عند الفاطميين:

ليس من السهل البحث في الحياة الإدارية للخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المعز لدين الله من المرحلة الإفريقية، ذلك أن المكتبة الإسماعيلية لم تعرف آنذاك من تحدث عن تنظيم الدولة وإدارتها، ومع هذا من الممكن استخلاص بعض المادة من كتابات القاضي النعمان، وأيضاً من سيرة جوذر، ومن كتب الأخبار العامة.

وكانت الخلافة الفاطمية أيام المعز، بشكل واضح، أكثر من ذي قبل دولة ثيوقراطية من جميع الجوانب، تدور الحياة فيها، وتتمركز سياستها وإدارتها، وعقيدتها حول شخصية الخليفة، الذي عدّ نفسه الإمام الشرعي الوحيد للمسلمين، والإمام عند الإسماعيلية شخصية مقدسة، تتمتع بالعصمة، وتفاوت الإعلان عن درجة القداسة بين مرحلة وأخرى، لكن على

obeikandl.com

العموم وصلت القداسة إلى حد التأليه، ولقد تقدم بنا الحديث عن هذا الجانب في العقيدة الإسماعيلية، وأيضاً لدى الحديث عن شخصية المعز، وللمزيد يمكن العودة إلى الفصل الأول الذي انتزعناه من الرسالة المذهبة، وأودعناه بين الملاحق.

ولم تحقق الدعوة الإسماعيلية أيام الحكم الفاطمي نجاحات عقائدية كبيرة بين صفوف المغاربة، ليس فقط بسبب ترسخ العقيدة السنية المرتبطة بمذهب الإمام مالك ومقاومة علماء هذا المذهب لهم، بل لأن حصر السلطات في شخص مقدس واحد يتنافى مع النظام القبلي الذي ساد بلدان المغرب، ولقد رأينا أن القبائل التي كانت مغرقة بالبداوة، كانت هي الأكثر رفضاً للحكم الفاطمي. يضاف إلى هذا طرق الإكراه والعسف التي اعتمدها الفاطميون لفرض عقيدتهم ولتخصيص أنصارهم بالامتيازات الهائلة على حساب شقاء الآخرين.

والإمام كان شخصية دينية دنيوية، تولى بذاته تسيير أمور الدولة، وارتبطت به بالوقت نفسه شؤون الدعوة والدعاة، ولم يعاون الإمام المعز في المرحلة الإفريقية وزير أو كاتب أو حاجب يتولى تسيير الشؤون اليومية والحكومية، مثلما حدث فيما بعد في المرحلة المصرية، وبالوقت نفسه لم يساعده أو ينب عنه داعي دعاة، أيضاً مثلما بات عليه الحال في المرحلة المصرية، هذا ولم يكن لدى المعز كاتب مفوض قد عهد إليه ببعض الصلاحيات، فلقد استقطب حول ذاته كل شؤون السلطة، ففي كثير من الأحيان كان يتولى بذاته قراءة المراسلات والرد عليها، إما بخطه مباشرة أو بالإملاء، والإملاء كان هو الأقل، ومن الممكن التعرف إلى هذا من محتويات كتابي المجالس والمسايرات، وسيرة جوذر.

العمال وتعيينهم:

لقد كان الخليفة المعز لدين الله يعين العمال والولاة ويتولى توجيههم ومراقبتهم، وتعيين أعطياتهم، وكان المعز لدين الله يسوغ ذلك بقوله: «والله ما ننال من الدنيا إلاّ دون ما يناله كثير من الناس فيها، وإن أكثرهم ليأكل ويشرب منها فوق ما نأكل ونشرب، وإنا لنلبس ويلبسون ونركب ويركبون، وننكح وينكحون، وإنا مع ذلك نتعب لصلاح أحوالهم، ودفع الضراء عنهم وهم وادعون، وقليل من يعرف لنا ذلك منهم فيشكره، بل أكثرهم يجهل ذلك ويكفره، ولو كان ذلك منا لهم لتركناه ولكنه شيء افترضه الله عز وجل علينا وألزمناه»[1].

وكان العمال أيام المعز لدين الله، ممن يتولى إدارة الأقاليم على نوعين: نوع يخرج من الحضرة، وله عطاء مقرر، ونوع آخر، عمال محليون بدون جراية. فهكذا كانت القاعدة «في قديم الزمان لمن ولي حكومة من أهل البلدان»[2]، ويفيد هذا الخبر أن الإدارة الفاطمية حافظت على قواعد الإدارة كما كانت أيام الأغالبة، لكن الآن أراد المعز لدين الله أن يحكم قبضته على المحليين وعلى المعينين من قبله سواء، فأصدر أمره إلى القاضي النعمان «لا تدع حاكماً من الحكام إلاّ قبضت له ما يصلح لمثله، فمن كان كما وصفته موسراً قائماً بنفسه. راغباً في ثواب عمله، فنحن في ثواب الله أرغب، وما أحب أن يتقلد لنا أحد عملاً إلاّ تبين له أثر فضلنا عليه، فلا تدع أحداً إلاّ عممته به»، ويفيد هذا أن المعز قضى إدارياً: إن لكل موظف أجرة على وظيفته، حتى وإن كان موسراً، أو توظف في مسقط رأسه، والمثير للانتباه هنا إصدار المعز لدين الله هذا

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٣٧.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٣٩٥.

الأمر إلى القاضي النعمان، وليس إلى ديوان مختص، ويبدو أنه لم تكن هناك دواوين، بل كل أمر كان بيد المعز وحده.

وعلى هذا كان يتولى مباشرة تتبع أخبار عماله، فمن أدى الأمانة زاده، ومن قصر انتقصه، أو عزله، وكان ينزعج من الناس عندما يشكون إليه أمر عامل من العمال فيقول: «عجباً لهؤلاء يرون أنا في غفلة عنهم وعن غيرهم، وما شغلنا ـ إذا اشتغل ملوك الدنيا بلذاتهم ـ إلا النظر في أمور من قلدنا الله (عج) أمره واسترعانا إيّاه»[1].

ونواجه هنا سؤالاً: إذا لم يكن لدى المعز لدين الله دواوين وأجهزة تجسس وبريد ترفع إليه أخبار العمال، فمن الذي كان يفعل ذلك؟ لعل الذي كان يرفع الأخبار كانوا من جهاز الدعوة، ويبدو أن المعز اعتمد هذا الأسلوب إمعاناً منه في المركزية، ودعاية لطاقاته ـ كإمام ـ غير الاعتيادية، حتى راج بين الناس أنه يعلم الغيب[2]، وكان هو شخصياً يلح على امتلاكه لطاقات استثنائية ولحكمة موروثة جاءت منحة من الله[3]، كما أن علمه كان علماً فطرياً[4].

أدوار المعز لدين الله الادارية والدعوية:

ومع هذا نسأل مرة أخرى لماذا لم يمتلك المعز لدين الله دواوين خاصة لدولته، أو لم يحدث مثل هذه الدواوين؟ ولعل أسباب هذا، انشغال المعز لدين الله والذين تقدموه بشؤون السياسة والحرب، أو أن المعز لدين الله شعر بأن مكوثه وأسرته في المغرب، آنياً مؤقتاً.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) المجالس والمسايرات ٤١٨ ـ ٤٢٠

(٣) المجالس والمسايرات ص ١٣٧.

(٤) المجالس والمسايرات ص ١٤٧.

واهتم المعز لدين الله بشؤون الدعوة والدعاة، والجيش الذي كانت عصبته كتامة، أكثر من اهتمامه بأي أمر آخر، واهتم بالوقت نفسه بأمور قصور الخلافة، وكانت موكولة إلى جوذر.

لقد كان المعز لدين الله يتولى شخصياً تعليم الدعاة وتوجيههم، ويراسل الذين كانوا في المشرق بجديد الإنجازات وغير ذلك، فقد كتب إلى أحدهم يخبره بالإستيلاء على سجلماسة، واعتقال ابن واسول[1]، وكان دعاة الجزر في المشرق يجبون الأموال من الإسماعيلية ويرسلون بها إلى المعز لدين الله[2]، وكان بعض الدعاة يستغل بعده عن دار الخلافة، فيتصرف حسب هواه، فيحل بعض المحارم، ولذلك كان المعز يعمل الحيلة بالتخلص من أمثال هؤلاء، واهتم المعز كثيراً بتطرف بعض الدعاة فكرياً، لاسيما لدى التعامل مع الأفكار الفلسفية وسواها[3].

وعلى العموم ركز المعز جهوده على السيطرة على أفكار الدعاة، وضبطهم ما أمكن، لاسيما وأن العقيدة الإسماعيلية تسهل الانزلاق نحو الغلو والتطرف، ولم يكن الوصول إلى هذه الغاية سهلاً، لأن كثيراً من الدعاة كانوا خارج مناطق السيطرة السياسية الفاطمية، فبعض الدعاة تطرف وجرى تحذيره وإنذاره أكثر من مرة خلال الخلفاء الثلاثة الذين تقدموا على المعز، ومع ذلك لم يقلع عن غلوه «وكان هذا الرجل قد ألحد في أولياء الله وغلا في دينه، فناله بسبب ذلك من سخط الأئمة ما نعوذ بالله» وحذر المعز رجال الدعوة الذين اجتمعوا إليه من مثل سلوك هذا الداعي، وبين أنه قد أصابته «لعنة ثلاثة أئمة، وإن لعنة الإمام من أشد عذاب الله لا تخطئ فيمن قصدته، ولا ينجو من أصابته»، وواضح أن

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٠٥.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٤٠٧.

(٣) المجالس والمسايرات ص ٤٠٨ ـ ٤١٠.

obeikandl.com

المعز لدين الله قد عالج غلو الداعي بغلو صدر عنه، ولعل غلو الداعي كان فيه تأليه للأئمة ومع ذلك أراد المعز لدين الله ومن قبله والده المنصور إسماعيل عدم إنكار المكانة العلية للإمام، لكن دون ادعاء الألوهية مباشرة، فذلك سيكون في مستقبل الأيام مع الحاكم بأمر الله، حفيد المعز، وقال المنصور إسماعيل وروى ما قاله المعز لدين الله وأكده: «عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال، ونخرق به البحار»[1].

ولدى استعراضنا لتاريخ المرحلة الإفريقية من حياة الخلافة الفاطمية، نلاحظ أن هذه الخلافة لم تتخذ لنفسها عاصمة ثابتة دائمة، ولعله لهذا السبب ولأسباب أخرى لم تكن هناك دار للدعوة لتدريب الدعاة وتخريجهم مثلما صار عليه الحال في القاهرة، لدى إنشاء الأزهر، ويستفاد من مواد كتاب المجالس والمسايرات أن المعز كان يجتمع بالدعاة في دار الخلافة، وطبعاً توفرت هناك مكتبة إسماعيلية جيدة، وكانت الأسئلة توجه إلى الإمام المعز لدين الله، وقد يجيب عليها مباشرة، أو كان يوعز إلى القاضي النعمان بالإجابة، وبعد عرض الإجابة عليه كان يسمح بنشرها على الدعاة فقط، وهذا واضح من الرسالة المذهبة، التي نشرنا الفصل الأول منها في الملاحق[2]، ويفيد هذا أن القاضي النعمان شغل إلى جانب القضاء، ما يعرف، بشكل عملي، منصب داعي الدعاة أيضاً، ومن هذا المنطلق علينا أن نتعامل مع كتاب المجالس والمسايرات، على أنه سجل لمجالس الدعوة أيام المعز لدين الله، برئاسته المباشرة، وقد حفلت المكتبة الإسماعيلية بعد المعز بمثل هذا النوع من الكتب الوثائقية.

لقد استغل المعز لدين الله حشود الدعاة لجمع المعلومات، ولبث الدعاية، ولتأمين كميات كبيرة من الأموال، وكانت رسل الدعاة من مختلف

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤١٨ ـ ٤٢٠.

(٢) انظر أيضاً المجالس والمسايرات ص ١٥٧، ٣٠٣.

الجزر يتوالى قدومها عليه. فقد حكى القاضي النعمان: «وقدم على الإمام المعز لدين الله ـ صلوات الله عليه ـ رسل جماعة من الدعاة من جزائر شتى بعيدة، فوافوا بالحضرة في يوم واحد، فأدخلهم إليه، فقبلوا الأرض بين يديه، ومرغوا خدودهم عليها، وأكثروا من حمد الله وشكره إذ أبلغهم إليه، وأراهم وجهه، وأوصلوا كتب الدعاة الذين أرسلوهم وما حملوهم من أعمال المؤمنين قبلهم.

وسألهم (صلع) عن الأحوال ممن خلفوه من الدعاة والمؤمنين، وما تجري الأمور بهم لديهم، فذكروا من صلاح الأحوال في ذلك واستقامة الأمور والعلو والظهور ما حمد الله عليه، وأكثر (عم) من شكره بما وهب به، وذكروا ظهورهم إلى من يجتازون به من الولاة المتغلبين في البلدان وإكرامهم إياهم وبرهم بهم إكراماً لأمر وليّ الله، وإعظاماً له.

فقال بعض من حضر: ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق، ولا يحول دونه إلاّ أنه لم يرم العزم في أمره، فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل.

فقال (ص): إنّا لم نتخلف عن ذلك إلاّ انتظاراً للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها، ولو حضرت ما تخلفنا عن إقامة أمر الله (تع) الذي نصبنا للقيام به»[1].

وعلى الرغم من إقدام بعض الدعاة على العمل العلني، ظل الخليفة المعز لدين الله يؤثر التكتم، ويستخدم المعمى في المراسلات والتكاليف[2]، وستظل أوضاع الدعاة هكذا في المرحلة الإفريقية، حتى ما بعد الاستيلاء على مصر، وبناء القاهرة، وكان الذي تولى تنظيم الإدارة

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٣٠، ٣٤٣، ٤٧٧ ـ ٤٧٩، ٤٩٩، ٥١٥.

هناك وأعاد تنظيم الدعوة هو يعقوب بن كلس، ولسوف نولي هذه الشخصية الهامة عناية مستقبلية خاصة، ولنتابع الآن وصف مجمل الأوضاع الإدارية كما باشرها المعز لدين الله شخصياً، مفترضين أن إدارة الأقاليم كانت حسب المواريث الأغلبية، متذكرين بالوقت نفسه انعدام الاستقرار والثبات في أي منطقة من مناطق المغرب، ولدى معالجتنا للنشاطات العسكرية للقائد جوهر في مناطق المغرب، رأيناها حملات جباية وجمع أموال، وقضاء على متمردين، إنما لم نسمع أن هذه الحملات ترافقت بإصلاحات إدارية أو جبائية، هذا ويكاد كتاب المجالس والمسايرات أن يخلو من أية إشارات أو أحاديث تتعلق بهاتين المسألتين الهامتين.

وأشرنا من قبل إلى أن المعز لدين الله كان يباشر شخصياً أعمال الإدارة، فيستقبل الدعاة والموظفين والرسل، ولكي يحافظ على سمو مكانته وحرمته، كان على الذين يمثلون في حضرة الخليفة السجود له، وتقبيل الأرض بين يديه، وتقبيل يده بالوقت نفسه، وإظهار آيات التقديس والاجلال له[1].

ولدى حديثنا المتقدم عن العلاقات مع كل من الأندلس وبيزنطة، رأينا المعز لدين الله، كان يقوم شخصياً باستقبال الرسل والتباحث معهم بشكل مطول، وإبرام الاتفاقات معهم[2]، ورأيناه هو الذي كان يتولى الإشراف على بيت المال، وإحصاء ما فيه، فهو الذي فعل ذلك لدى الإعداد لحملة جوهر، وعندما تعب من عمله استدعى أحد موظفيه وكلفه بمتابعة المهمة[3].

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٥، ١٦٧، ٣٦٧.

(٣) انظر ما تقدم ص.

وبما أن الخلافة الفاطمية قامت على أكتاف رجال قبائل كتامة، فقد أشرف المعز مباشرة على مسائل التعامل مع كتامة ورعاية شؤون زعمائها ومقدميها.

وقد أورد صاحب كتاب سيرة الأستاذ جوذر عدداً من نصوص الرسائل المتبادلة بين الخليفة المعز لدين الله وبين جوذر، وواضح من أخبار أسباب كل مراسلة ومن النص المعزي، أن المعز لدين الله كان يتناول شخصياً الرسالة الواردة إليه فيقرأها، ثم يتولى الإجابة عليها مباشرة بخط يده على الورقة ذاتها، ولدى قراءة أجوبة المعز لدين الله نلاحظ أنه كان سريع البديهة متمكناً، لديه قدرة كتابية راقية ولغة رفيعة سليمة فصيحة[1]، ويؤكد هذا مجدداً ما ذهبنا إليه أن المعز لدين الله، أو بالحري الخلافة الفاطمية، لم تمتلك في المرحلة الإفريقية ديوان إنشاء، مثلما سيكون عليه الحال في المرحلة المصرية، وانعدام وجود ديوان إنشاء، يعني انعدام وجود كتاب اختصاصيين.

دور قبائل كتامة:

ومع أن الخلافة الفاطمية كانت دولة عقائدية، لكنها قامت على سواعد رجالات قبائل كتامة وتاريخها في المرحلة الإفريقية - وإلى حد ما في المرحلة المصرية - وثيق الارتباط برجالات قبائل كتامة، ولذلك حرص الخلفاء الفاطميون على رعاية كتامة، لأنها عصبية خلافتهم، وعماد قوتهم وبقائهم، ومرت العلاقات بين الخلفاء وبعض زعماء كتامة بأزمات، إنما أمكن تجاوزها، من ذلك إقدام الخليفة المهدي على قتل أبي عبد الله الداعي، والاعتماد على كتامة جعل الخلافة الفاطمية في المرحلة الإفريقية - على الرغم من تطلعاتها المشرقية وصلاتها - خلافة مغربية حققت استقلال

---

(١) جوذر ص ٧٢ - ١٤٣.

obeikandl.com

الشمال الأفريقي السياسي الفعلي، وألغت تبعيته لدولة المشرق المركزية، وشكل هذا سابقة خطيرة جداً، سوف تأخذ أبعادها المطلقة بقيام الدولة الموحدية في المستقبل، التي كانت خلافة مغربية كاملة من حيث الأسرة الحاكمة، والشعوب المحكومة.

وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي تعاظم اهتمام هذا الخليفة بكتامة لبسط سيطرته على بلدان المغرب، ولانجاح مشروع السيطرة على مصر، ولقد رأينا أهم الولايات الفاطمية، خاصة صقلية، قد عهد بها المعز لدين الله لرجال من كتامة، وطبعاً كان الجيل الكتامي الذي عاصر المعز لدين الله غير الجيل الأول الذي أسس الخلافة الفاطمية.

فالجيل الجديد لم يربّه أبو عبد الله الداعي، ونشأ وسط الاضطرابات التي هزت أركان الخلافة الفاطمية، لذلك كانت تصدر عن بعض أفراده تصرفات كانت تخل بأمن الخلافة، ففي إحدى المسايرات وقف للمعز «جماعة من الأولياء من كتامة، بلغه عنهم فساد في ناحية، فأمر بإشخاصهم إليه لذلك، فجعلوا يعتذرون منه ويحلفون عليه، فقال لهم: قد صدقتم فيما قلتموه عن أنفسكم، ولكن قد فعل ذلك أحداثكم وعبيدكم ومن لا خير فيه ممن ينسب إليكم، وأنتم تعلمون ذلك فلم تغيروه، فأنتم بمنزلة من فعل ذلك، وإن تتلافوا أمركم وتأخذوا على أيدي سفهائكم، وإلاّ كنتم وهم في العقوبة سواء»[1].

وعلى الرغم من هذا التهديد حرص الخليفة المعز على عدم إنزال العقوبات بأي من أفراد قبيلة كتامة، حتى لا يزلزل أركان دولته، لذلك أعلن: «ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله، ولقتلت من يجب في صلاح

---

(١) المجالس ص ٢٣٩.

obeikandl.com

الدولة قتله، وأبقيت من يُنتفع فيها به، ولكنني حملت الأمر على ما أوجبه الزمان لي وجرت به عادة الله الجميلة عندي»[1].

وحرص المعز في مجالسه العامة وفي الأعياد على إظهار محبته الكبرى وعنايته العظمى لرجال كتامة، ذلك أنهم أولياء الدولة، فعندما قرب موعد عيد الأضحى في إحدى السنوات، سأل المعز «عن مجئ كتامة من الأعمال لشهود العيد، فقيل له: يا أمير المؤمنين يتساربون وقد غص القصر بهم.

فقال: بارك الله فيهم فما أسرني بهم وباحتفالهم، وما أحب إليّ أشخاصهم، وأزين في عيني مناظرهم.

ثم نظر إلى [القاضي النعمان] فقال: أرأيت مثلهم في بهائهم وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم، أما إني ربما أقول في نفسي إذا أعجبني ذلك منهم: إن ذلك لفرط محبتي لهم»[2].

ويدل بهاء شكل رجال كتامة، وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم، على أن أوضاعهم المالية والاقتصادية كانت جيدة، ذلك أنهم عصبة الدولة، ذلك أن الفقر والعوز كانا منتشرين في ديار الخلافة، لأن هذه الخلافة لم تنفذ أيا من برامجها الاقتصادية لأيام الدعوة الإسماعيلية، ففي احتفال ختان جماعي كبير أجراه المعز لدين الله، صرف عليه «من الأموال والخلع والنفقات ما لا يحصيه إلاّ من وقف عليه» وبعد ما وزع هذا الخليفة الخلع والأعطيات على عامة الناس وخاصتهم قال: «والله لقد ساءني من رأيته يمر بي من أهل الفقر والمسكنة»[3]، ولم يطالب بالعدالة لهؤلاء بل أوصى

---

(١) المجالس ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

(٢) المجالس ص ٢٤٥.

(٣) المجالس ص ٥٥٨ ـ ٥٦٢.

الأغنياء أن ينعشوا بأموالهم الفقراء، علماً بأن ذلك كان واجبه وهو الإمام الذي لديه الأموال الكثيرة، لكنه كان قد قرر صرف هذه الأموال على مشروع الاستيلاء على مصر، وعلى شراء رضى الزعماء.

ولم يضيع المعز فرصة من الفرص لم يظهر فيها تودده لكتامة، فقد روى القاضي النعمان أنه سمعه يقول: «إنه ليتداخلني من السرور وأجد من الفرح، وأبتهج بما يتصل بي ويبلغني وأراه من الخير والصلاح في أوليائنا ما لو كان مثل ذلك في الولد ما بلغ مني أكثر منه، وما يفوق من كانت هذه حالهم منهم عندي إلا من خصه الله من الولد، بالفضل الذي ينقله عني»[1].

وفي أحد الأعياد دخل على المعز لدين الله «رجال من كتامة أتوا من النواحي لشهود العيد»، فسألهم عن أحوالهم، وعن أحوال الذين خلفوهم، «فذكروا جميل أحوالهم وهدوء نواحيهم، واستقامة الأمور قبلهم، وشكروا عمال بلدانهم.

فابتهج لذلك صلوات الله عليه وسره وتهلل وجهه وتبسم، ثم... قال: هؤلاء أولياؤنا وخالصتنا، هؤلاء حزبنا وزمرتنا، هؤلاء أتباعنا وعمدتنا، هؤلاء خاصتنا وأهل مودتنا، هؤلاء الذين يكونون في الجنة معنا كما كانوا معنا في الدنيا، ما أسرني بهم وأبهجني برؤيتهم، وأحسن في عيني منظرهم»[2].

ومع ذلك كان المعز لدين الله يثير التنافس بين أجيال كتامة، وكان لا يعهد بالقيادات العسكرية العامة إلى أحد منهم، بل كان يعهد بذلك إلى عبيده المحررين من الصقالبة، كحال جوهر القائد.

---

(١) المجالس ص ٢٤٨.

(٢) المجالس ص ٣٢١.

obeikandl.com

وأثناء ندب المعز العساكر للخروج للقتال ضد ابن واسول صاحب سجلماسة، تقاعس الشيوخ، وسارع إلى الاستجابة الشباب من كتامة طائعين، وبعد ذلك حضر الشيوخ لديه فتجنب توجيه النقد إليهم، وجعل المسألة تمر بشكل طبيعي، وذكر أسلاف رجالات كتامة بكل خير وقال: «ما نصر الله ولياً من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا، على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم، على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا تتناسلون وتنشأون، وبها غذيتم، وعليها فطرتم، فأبشروا بما قسم الله (عج) من الفضل لكم، فأنتم حزب الله وأنصاره وجنده وأحباؤه»[1].

وكان دوماً يحث رجالات كتامة على التماسك والوحدة، ومع هذا كان يشجع الجيل الجديد من الكتاميين ويقول لهم: «ولقد سبق من آبائكم مع الآباء، وأجدادكم مع الأجداد من يقول الناس إنهم بسبقهم أفضل منكم، وما أقول أنا إلاّ أنكم أفضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به في أيامي، ورحمتي وحياتي، وإن كان من تقدم من الآباء (صلع) لم يألوا إحساناً وفضلا لما كان في عصرهم، وإن كان ما كان منهم إليهم من التأدب لما فيه صلاح جميعهم، فلكل زمان رجال، وليهلكن بسيرتي اليوم غداً خلق كثير ممن يظن أن الأمر لا يعدو ما أنا اليوم عليه، فاعرفوا قدر ما منّ الله عليكم به، واشكروه يزدكم من فضله»[2].

الصقالبة:

وتقدمت بنا الإشارة إلى سوء العلاقة ما بين القائد جوهر الصقلبي والقائد الكتامي جعفر بن فلاح، وشكل الصقالبة (السلاف) العنصر الأساسي للرقيق الأبيض في الأندلس ثم في المغرب، وكان جلهم خصياناً

---

(١) المجالس ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ٤٨٦ ـ ٤٨٧. جوذر ص ٥٩.

(٢) المجالس ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

وبعضهم غير خصيان، وشغل الصقالبة أدواراً شابهت ما شغله الرقيق من الأتراك في المشرق، وعلى العموم لم يشكل الصقالبة في الدولة الفاطمية عصبية، وقد ورث الفاطميون بعضهم عن الأغالبة، وأسندوا إليهم وظائف سنية، وكلفوهم بمهام قيادية عالية، وبذلك احتكروا الوظائف الكبرى في القصور ومراكز الدولة، وكثيراً ما أسند الخلفاء إلى بعضهم مهام قيادة قوات برية أو بحرية كان جلّ جنودها من كتامة، ولهذا وجد تنافس بين كتامة والصقالبة، وحرص المعز لدين الله على إحلال الوئام بين كتامة والصقالبة، فعندما أعد المعز جيشه للزحف ضد سجلماسة، أو كل قيادته إلى جوهر الصقلبي، فاحتج شيوخ كتامة على ذلك، فسوغ المعز لدين الله هذا التعيين بقوله مخاطباً شيوخ كتامة: «لولا السنة التي أمر الله عز وجل باتباعها، التي لا يصلح العباد إلاّ بها، ما قدمت عليكم أحداً منكم ولا من غيركم، إذ كل واحد منكم عندي يستحق أن يكون المقدم، لكن لا يصلح الناس إلاّ برئيس، وقد قدمت عليكم من قد علمتموه، وقد أمرت لكم بأجزل عطاء أعطيته... كونوا عند ما رجوتكم له من الغناء والكفاية، وصلاح الحال بينكم، أحسنوا عشرة بعضكم لبعض، وعشرة من تصحبونه من غيركم، وأنزلوا من ينفذ معكم من عبيدي منازل إخوانكم، واجمعوا معهم كلمتكم، فهم لكم عضد ولحمة، وموالاتي تجمعكم وإياهم، فلا تجعلوا بينكم وبينهم فرقاً»[1].

هذا من جانبه ولاحظ المعز وجود بعض الشطط في التصرفات لدى الصقالبة تجاه رجال كتامة، فانفرد بهم وأوصاهم بحسن السلوك، وأمرهم أن يكونوا للكتاميين «أخوة ومعهم ألفة»[2].

---

(١) المجالس ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. جوذر ص ١٣ ـ ١٥.

(٢) المجالس ص ٢٥٨.

وكان المعز قد أثنى كثيراً على الكتامين، وذكر بالفضل دورهم في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وعلى أتباعه حيث قال: «هم والله الذين أذاقوهم طعم الموت، وأحلوهم محل الذلة وأخرجوهم قسرا بظبى السيوف، وحد الرماح، حتى ألحقوهم بقنن الجبال في أطراف البلاد، ثم استنزلوهم منها قسراً، وأبادوهم قتلاً»، وهنا اعترض واحد من العبيد الصقالية قائلاً: «فنحن يا أمير المؤمنين، فما ترى أنا قصرنا، وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا فمن نازعنا ذلك فليعدّ مشاهدنا ووقائعنا، ومقاماتنا ومن استشهد منا.

فقال (عم): لا سواء إنّابهم ملكناكم، ولم نملكهم بكم، أرأيت لو تُركت أنت وأمثالك في بلدانكم، أكنتم تأتوننا؟! قال: لا، قال: فهؤلاء أتونا طائعين، وبذلوا لنا أنفسهم راغبين، ومضى على ذلك أسلافهم، وثبت عليه أخلاقهم، للسلف منا وللخلف، قرنا فقرنا، وجيلاً فجيلاً،... وهؤلاء أجدادهم مع أجدادنا، وآباؤهم مع آبائنا، وهم معنا، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا إلى يوم الدين إن شاء الله»[1].

وعلى الرغم من جهود المعز استمر التنافس بين الصقالبة والكتاميين حتى في المرحلة المصرية، ولعله كان هذا واحداً من الدوافع للعزيز ـ خليفة المعز ـ بتجنيد عناصر سودانية وأخرى مشرقية من ترك وديلم وسواهم.

القضاء:

ومن المقرر أن كل دولة من الدول احتاجت إلى السيطرة على المجتمع لديها بضبط الأمن وبفض الخلافات بين الناس، وفي العادة كان

---

(١) المجالس ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

obeikandi.com

يتولى في البلدان الاسلامية أعمال فض الخلافات بين الناس قضاه تعينهم السلطة العليا، أو أن الناس كانوا يلجؤون إلى الفقهاء أو رجال المعرفة والدراية والزعامة بين القبائل أو في الأرياف.

ومع القضاة كان لابد من وجود شرطة، وأصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من رجال الحسبة وأصحاب السوق، ومن المفترض أن هذه الوظائف التي وجدت في المغرب قبل قيام الخلافة الفاطمية، قد استمر وجودها، لكن ليس هناك ما يوثق ذلك، وتبقى مسألة القضاء أكثر أهمية، فنحن نعرف من خلال المجالس والمسايرات، أن النعمان قد مارس أعمال القضاء حتى شهر بلقب القاضي، غير أن النعمان كان قاضي الحضرة، وأقام وعمل حيث كان الخليفة الفاطمي مقيماً، لكن والنعمان كان قاضياً إسماعيليا، إلى من التجأ المغاربة الذين كانوا من أهل السنة للتقاضي، وهل كان للنعمان نواب في المدن والأقاليم؟[1] هناك إشارة فريدة في المجالس والمسايرات[2] إلى إرسال قضاة إلى الأقاليم، فقد قال القاضي النعمان موصياً بعض «القضاة الخارجين إلى بعض الأعمال: إن أحق ما نظرتم فيه وعملتم له، الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة فيما قلدتموه، وامتثال ما عهد أمير المؤمنين عليه السلام إليكم فيه، لما يجب لله وله عليكم في ذلك، ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم لكم به النعمة»، وحذرهم من الرشوة وخيانة الأمانة، فهل يا ترى كان عامة الناس يلجؤون بشكل عام إلى التقاضي أمام رجالات أهل السنة، لكن الذين كانوا يرغبون

---

(١) النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى ـ ترجمة عربية ص ١٩٥ ـ ٢٢٢.
(٢) المجالس ص ٥٣.

بكسب القضايا كانوا يلجؤون إلى قضاه الدولة الرسمين الذين كانوا يتعاونون مع الولاة والعمال[1].

والحديث عن القضاء الفاطمي هو في الحقيقة حديث عن القاضي النعمان، لكن قبل أن نشرع بذلك، لابد من التذكير بأن الإمام الفاطمي كان مصدر التشريع والقضاء، وغالباً ما مارس ذلك شخصياً، وفي المجالس والمسايرات إلحاح على أن المعز لدين الله قد أوتي فهماً استثنائيا في القدرة على استنباط الأحكام والفض بين الخصوم، وكان في هذا الميدان أفقه من أبيه المنصور، وقال القاضي النعمان عنه: «والله ما ضاق عليّ أمر رأيته واشتبه عندي وجه الحق فيه فرفعته إليه إلاّ أجابني عنه قبل استيفائه آخره، أو عندما يستوفيه، بجواب ما خطر ببالي بعد الروية له والفكر فيه الأيام الكثيرة والليالي العديدة، وبما لا أشك فيه أنه الحق الذي لا وجه له غيره[2]».

ويبدو أنه قد توفرت حاجة ملحة لإنصاف الناس وفض نزاعاتهم، أي كان هناك عجز بالقضاء، ولم تكن هناك محكمة مظالم، كما عرف العصر العباسي وسواه، وانعدمت الثقة بالقضاء، فقد ذكر القاضي النعمان أن المعز لدين الله «قد خرج يوماً إلى خارج المنصورية في بعض ما يخرج له، فازدحم الناس على ركابه، وأحاطوا به من كل جهة يسألونه حوائجهم ويرفعون إليه قصصهم، وقد أقام لذلك من يتولاه فأبوا إلاّ مواجهته به، وهو في ذلك يقبل عليهم ويسمع منهم، ويأمر بقضاء حوائجهم، إلى أن جاء من ذلك ما لم يمكنه معه المشي، ونفر به الفرس تحته، ودار به، فأمرهم بالانصراف، وأمر من بين يديه من المشاة

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٧٧ ـ ٣٩٦.

(٢) المجالس ص ٦٠ ـ ٦٣.

بصرفهم، فألحقوا عليه ولم ينصرفوا عنه، وقصر المشاة عنهم في دفعهم، فتناول رمحاً من يد بعضهم، وقال: ما جزاء أحدكم إلاّ ضربة بهذا»[1].

والذي أورده القاضي النعمان في المجالس والمسايرات في باب القضاء، هو سيرته في هذا العمل وعلاقته بالخلفاء منذ أيام المهدي، ولم يكن النعمان قاضياً فقط، بل كان لسان الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وكاتبها في المرحلة الإفريقية، ذلك أن المسؤولية عن الدعوة انتقلت مع الانتقال إلى مصر إلى يعقوب بن كلس، الذي كان أبرز رجالات تاريخ الدولة الفاطمية، فقد نقل يعقوب الخلافة الفاطمية من دولة تعتمد على شخصية الخليفة، إلى دولة تعتمد على المؤسسة الإدارية والعقائدية، فقد نظم الإدارة المالية والتجارية للخلافة، كما أعاد تنظيم الدعوة وشؤون الدعاة، والمستعرض للتاريخ الفاطمي في مصر يجد أنه لم يكن بين الأحد عشر خليفة الذين حكموا في تلك المرحلة من تميز في أي جانب من الجوانب، فالكل كانوا ضعفاء أو تولوا الحكم وهم صغار السن، وكانت هناك حروب دائمة ودسائس في البلاط، ومع ذلك كانت مصر مزدهرة بشكل عام، مرهوبة الجانب في حوض البحر المتوسط براً وبحراً، ومرد ذلك إلى أن ابن كلس أمن للدولة موارد مالية ثابتة تقريباً من إيجارات القاهرة بيوتاً وحوانيتاً، حيث كانت الدولة هي المالك لكل عقار في القاهرة، ومع موارد العقارات حصلت الدولة على موارد ممتازة من التجارات على أنواعها، ودعم هذا كله جهاز الدعوة الإسماعيلية المنظم، والذي تولى الأزهر تخريج دعاته وتوجيههم[2]، وفي الحقيقة ليس لنا رغبة بالاستطراد

---

(١) المجالس ص ٢١١ ـ ٢١٢ ـ ٢٥٩.

(٢) A Mediterranean Society, by S.D.Goitein, vol I, PP 29 - 36. وينبغي أن نذكّر أن هذا الكتاب اعتمد على وثائق الجنيزا، التي تم العثور عليها في كنيس الفسطاط القديم.

بهذا الميدان، والأحسن أن نقف أولاً عند السياسة الضرائبية والمالية في المرحلة المغربية، وسوف يكون الحديث له اللون العام، حيث من الصعب الالتزام بالحديث عن أيام المعز لدين الله تحديداً.

السياسة الضرائبية والمالية:

كان المعز لدين الله يعتقد أن جميع الأراضي في دولته ملكاً له مع مواردها من ماء وسواه ففي أيام أبيه تقاضى إليه رجلان اختلفا حول سقاية أرضيهما، وعندما حاولا عرض قضيتها عليه قال لهما: «اسكتا أكفيكما ونفسي، ثم... قال: أليس هذا الوادي وما يجري فيه من الماء، وما يسقي من الأراضي لنا؟ قال: نعم، قال: وإنما تنازعتما في هذا السقي ليطلب كل واحد منكما به توفير ما يجري لنا على يديه؟ قالا: نعم[1]».

وفق هذه القاعدة سارت السياسة المالية للفاطميين في أيام المعز، وكان هذا الخليفة يتطلع إلى السيطرة على مصر وإلى ادخار الأموال بعد جمعها لهذا المشروع بشتى السبل، يضاف إلى هذا أن عهد المعز شهد ـ كما رأينا ـ حملات عسكرية عملاقة في شتى أنحاء المغرب، ولا شك أن نفقات هذه الحملات كانت كبيرة جداً، مع أنها كانت حملات جباية ومصادرات، يضاف إلى هذا كان لدى دولة المعز اسطولها الخاص بها، ولاشك أن نفقات بناء الأسطول كانت كبيرة.

وكنا لدى الحديث عن توجيه حملة جوهر إلى مصر، قد أتينا على وصف كميات الأموال الهائلة التي وضعت تحت تصرف هذا القائد، ويبدو أن المعز لدين الله شعر بالحاجة إلى مزيد من الأموال ليحملها معه إلى

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٦١ ـ ٦٢.

obeikandl.com

مصر، حتى أن هذا دعاه إلى محاولة مصادرة أموال المتبقين من كتامة، وبالفعل عندما توجه المعز لدين الله إلى مصر حمل معه من الذهب ما جمع له، وهو «ما لم يسمح بملك جمع مثلها، ورحلها صحبته، وسار في هيبة عظيمة، وعدة وجنود جمه، وجيوش مستعدة، وقد أمر بالدنانير من الذهب فسكت بسبائك، وطبع اسمه عليها، وجعل حمل كل جمل سبيكتين»[1].

وكان الجغرافي الإسماعيلي ابن حوقل قد وصف في كتابه «صورة الأرض» أوضاع بلدان المغرب في أيام المعز لدين الله، وأوضح أن جل مدن الشمال الأفريقي قد عرفت حركة تجارية داخلية وخارجية برية وبحرية نشطة، وفي كل مدينة كان هناك عامل أو أكثر وظيفته جمع الصدقات والخراج والعشور وجبايات أخرى «ما يجب على القوافل المجتازة» وكان لدى العامل «جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه، وفيما ورد إليه، وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه، واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة».

واعترف ابن حوقل بفرض جبايات جديدة لم تكن من قبل، فقد قال مثلاً: «وكان من صبرة - وهي منزل من اطرابلس على يوم - وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا، ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من اطرابلس إلى القيروان، وعلى القادم من القيروان إلى اطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل اطرابلس من كل جمل ومحمل، وحمل، وذلك كالذي بلبدة، وهي أيضاً قرية بينها وبين طرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان، من الضريبة على الجمال، والأحمال والمحامل، والبغال، والرقيق، والغنم، والحمير، إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة»[2].

---

(١) عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٨٤.

(٢) صورة الأرض ص ٦٩ - ٧١.

وواضح من كلام ابن حوقل هذا أن عمال المعز لدين الله كانوا يجبون من المسافرين والتجار ما بين بلدة وأخرى، ثم يزيدون فيجبون من الأسواق، وهذا ما لم يعرفه بلد اسلامي قط ولاشك أن نسبة الجبايات كانت عالية جداً، حيث كان لدى العمال جداول ومناشير رسمية بالتعرفات المتوجب جبايتها. ولاشك أن السياسة المالية الفاطمية أفقرت الشمال الأفريقي وأضرته كثيراً.

ولتأخذ هنا نموذجاً مدنية تيهرت التي تحدثنا من قبل عن ازدهارها، اقتصادياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً، قبل تأسيس الدولة الفاطمية، فقد تحدث عنها ابن حوقل بقوله: «وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم، ودوام القحط، وكثرة القتل والموت»[1].

وذكر ابن حوقل أنه سمع «من زيادة الله أبي نصر بن عبد الله بن القديم في سنة ستين.. وكان صاحب الخراج بإفريقية والمغرب». يقول: «دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن: خراج، وعشر، وصدقات، ومراع، وجوال، ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس فيعشر على سواحل البحر، وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر، ويلزم ما يرد منها من الورق، والمقوم بقيمة العين، والعين المجتبى من هذه الوجوه، فيكون من سبعمائة ألف دينار إلى ثمانمائة ألف دينار»، وبين ابن حوقل أن عامل الخراج لو سمح له لجبى ضعف هذا المبلغ، ومع ذلك شكك ابن حوقل بهذا الرقم ورأى أن الجباية كانت أكبر بكثير، يضاف إلى ذلك «ما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب

---

(١) صورة الأرض ص ٩٣.

obeikandl.com

الأعمال واستئثارهم بما يزيد على القوانين في أيديهم»[1].

ومبلغ الجباية هذا كبير جداً، وينبغي أن نضيف إليه ما كان يصل إلى الإمام الإسماعيلي من أموال الخمس من الإسماعيليين، ذلك أن الدعوة الإسماعيلية أوّلت بعض الآيات القرآنية تأويلاً خاصاً، خالفت به جمهور المسلمين، فقد قالوا بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩] بأن أولي الأمر هم الأئمة الإسماعيليين الذين طاعتهم مفروضة في كل جانب، كما تعاطوا بالطريقة التأويلية نفسها مع قوله تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ [التوبة: ٦٠]، فمن المعروف أن المسلمين لم يتوقفوا عن دفع أموال الصدقة إلى رجال السلطة منذ قيام الدولة الأموية، ورأى الإسماعيليون وجوب دفعها إلى أئمتهم، لأنهم أولي الأمر، وزادوا فطالبوا بخمس دخل كلّ مسلم على أساس تأويل قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن ماغنمتم من شيء فان الله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ [الأنفال: ٤١].

فهم قالوا بأن كل ما يكسبه الإنسان هو غنيمة، وقالوا أيضاً أنهم خلفاء الله وورثة النبي (صلع) وهم أيضاً ذوي القربى، وزادوا على ذلك بأن عزوا إلى الإمام جعفر الصادق أنه قال: «أوجب الله تعالى لنا الخمس في أموال عباده المؤمنين، وجعله لنا حق عليهم، فمن منعنا حقنا ونصيبنا في ماله لم يكن له عند الله من حق ولا نصيب»[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٢) القاضي النعمان ـ الهمة في اتباع الأئمة ص ٨٠. الجامع في أخبار القرامطة ص ٤٣٣.

وقبل قيام الخلافة الفاطمية كان الدعاة من الإسماعيلية يجبون الخمس من أتباعهم ويرسلونه إلى الإمام، ومثل هذا فعل القرامطة[1]، وكنا رأينا أن المهدي عندما كان في السلمية كان ثرياً جداً وأنه عندما قدم إلى مصر ثم إلى سجلماسة قدمها بصفة تاجر كثير الأموال.

وبعد قيام الخلافة الفاطمية تابع الدعاة في جزر الدعوة جمع الأموال وإرسالها عيناً أو بضاعة أو أشياء للرفاهية إلى الأئمة، فقد سمع القاضي النعمان المعز لدين الله يترحم على واحد من الدعاة بعدما مات لما كان عليه من الصحة والأمانة والولاية، ذلك أنه «كان يشتري لنا فيما يبعث به إلينا مما نأمره ببعثه المسك، فيفرغه على ثوبه ليزنه ويودعه في الوعاء، فتعلق رائحته بثوبه، فيخرج من ماله لتلك الرائحة ثمناً يضعه في يديه من أموالنا، تحرزاً من الخيانة»[2].

وكان الإسماعيليون من الأثرياء والفقراء يرسلون بالخمس إلى أمامهم، ولم يتعفف هذا الإمام عن تسلم مال الفقراء بل أثنى على ما كانوا يقومون به، قال القاضي النعمان: «ذكرت للإمام المعز لدين الله (صلع) أعمال قوم من المؤمنين ذوي إقلال، غير معروفين، يأتون بالقليل من المال مواظبين على ذلك دائمين عليه، فقال (ص) والله للقليل الذي يأتي به هؤلاء وأمثالهم من كسب أيديهم على ضيق معايشهم وغباوتهم لا يريدون بذلك سمعة ولا رياء، ولا يبتغون به نيل منزلة من منازل الدنيا الأزكى عند الله (تع) وعندنا من كثير مما يأتي به أهل السعة والغنى والجدة ممن نعرفه، ونرى أن ما يأتي به نقف عليه ونعلمه لأن القليل من المقل ينقص من معاشه ويخل به، والكثير من أهل الكثير لا ينقصهم ولا

---

(١) زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة ص ٤٣٣.

(٢) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٩٠.

يخل بهم، كذلك ولا يؤثر في معايشهم، ولذلك قال رسول الله (صلع): «أفضل الصدقة جهد من مقل»[1].

ورأى المعز لدين الله أن كل مال يكسبه الإنسان هو عطاء من الإمام وتوسعه من فضله لذلك عليه أن يخرج من حق الله إلى الإمام، وأن يبعث به إليه عن طريق الدعاة، ليتصرف به كيف شاء[2].

والمستعرض لأخبار المعز لدين الله، يلاحظ أنه عاش حياة أقرب إلى التقشف، وليس في أخباره أحاديث أعطيات ضخمة لأعوان أو شعراء أو كتاب، مثلما كان الحال في أيام بني أمية وبني العباس وغيرهم كثير، فلقد اهتم بالجباية والجباية فقط، وهذا النهم كاد أن يورطه بمشاكل كثيرة حتى مع زعماء كتامة نفسها، فبعدما جرى إرسال جوهر إلى مصر «بعث [المعز] خفيفا الصقلبي ـ صاحب الستر ـ إلى شيوخ كتامة يقول: يا إخواننا، قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم، ويحفظونها علينا في بلادهم، فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله، فقال بعض شيوخهم لخفيف، وقد بلغهم ذلك: قل لمولانا: والله لافعلنا هذا أبداً، كيف تؤدي كتامة الجزية، ويصير عليها في الديوان ضريبة، وقد أعزها الله قديما بالإسلام، وحديثاً معكم بالإيمان، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب؟.

فعاد خفيف بذلك إلى المعز، فأمر بإحضار جماعة كتامة، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه، فقال: ما هذا الجواب الذي صدر عنكم؟ فقالوا: نعم

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٥١٩.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٥٢٠.

هو جواب جماعتنا، ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا، فقام [المعز] في ركابه، وقال بارك الله فيكم، فهكذا أريد أن تكونوا، وإنما أردت أن أجربكم، فانظروا كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر، هل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم، والآن سررتموني بار ك الله فيكم».

وواضح من هذه الرواية أن المعز لدين الله كان جاداً في طلب الجباية، لكنه تراجع وتظاهر بما تظاهر به، فهو عندما كان على قصد مغادرة المغرب إلى مصر، أوصى نائبه بلكين بقوله: «إن نسيت ما وصيناك به فلا تنسى ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولّ أحداً من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا»[1].

ويبدو أن بلكين نفذ هذه الوصية، فكانت قبائل كتامة أول ضحاياه، فبعدما تحدث ابن حوقل عن تدهور أحوال تيهرت قال: «وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط، وكثرة القتل والموت، وكذلك كتامة في حالها من جهة خليفة أهل المغرب بالمغرب، وهو بلكين يوسف بن زيري، وقد استباح الجميع»[2].

وكنا لدى الحديث عن حفلات الاعذار الجماعي التي أقامها المعز لدين الله قد أشرنا إلى انتشار الفقر بين أوساط أهل المغرب الكبير، كما أشرنا إلى عمل بعض رجالات الدولة الكبار بالتجارة، وضربنا مثلاً بالأستاذ جوذر، ولهذا جمع هذا ثروة هائلة من العين والبضائع، ومرّ بنا أنه أمدّ

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٠١.

(٢) صورة الأرض ص ٩٣.

المعز لدين الله بالأخشاب من عنده لصناعة سفن الأسطول، وتجهيزها، فضلاً عن هذا عندما جهز المعز لدين الجيوش بقيادة جوهر الصقلبي ليرسلها إلى مصر «واحتاج إلى الإنفاق في ذلك، فاقتضت الاستاذ نفسه وديانته إلى ذكر ما توفر عنده، من حسن نظره، في شيء باعه من الحزائن، واستخرج بقايا الأموال على ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملاً وتقرباً، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار، واثنين وعشرين ألف درهم، بعث بذلك إلى مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه»، وابتهج المعز لدين الله بما بعثه إليه الأستاذ جوذر، فكتب إليه يقول: «يا جوذر وقفنا على ما ذكرته، فاسأل الله أن يهبك من رضاه وحنانه ومغفرته ما يستغرق أملك، وأن يحسن إليك عنا جزاءك، ويكشف ضرك حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام ظاهراً كما حججته باطنا، وترى في مخازننا من الأموال العلا ما يكون لنا في جمعة الأجر عند الله، وخزي لأعدائنا في الدنيا، فما يعبد الناس غير الجماد، والذي يلزمنا من الإخراج فهو والله شيء لو كان من ماء البحر لكان عجباً، ولاموفّر لدينا، بل الكل أعوان على التمزيق والإخراج، وقد تدخلنا فيما لا يمكننا التقصي عن بلوغ الغاية فيه، فاسأل الله أن يتقبل ذلك منا، ويجعله لوجهه خالصاً»[1].

ولمكانة جوذر ولاسهاماته المالية وغيرها، تمتع بالإعفاء من دفع الضرائب، وهذه حالة نادرة في التاريخ الفاطمي، وفي أيام المعز لدين الله بالذات فقد أهدى أفلح الناشب عامل برقة «إلى الأستاذ جوذر هدية زهاء عشرين بعيراً»، فكتب إلى المعز لدين الله يخبره بذلك، فأعفاه من دفع الضريبة عنها، وزاده بأن جعل رعايتها والنفقة عليها على حساب

(١) سيرة جوذر ص ٩٢ ـ ٩٣. عيون الأخبار ـ السبع السادس ص ٣٨.

obeikandl.com

الدولة[1]، لأن جوذر كان خصياً لاوارث له غير الدولة.

وحالة جوذر هذه كانت بالفعل شاذه، لم يعامل بها سواه، فقد طلب الأستاذ جوذر من المعز لدين الله التساهل مع صقلبي آخر من رجال الدولة اسمه شفيع بشأن إيجار بعض المنازل في تونس فكتب المعز إليه يقول: «اقبل منه ما أعطى فيها، على أنه ينزل لكل سنة واجبها، ولا يترك له مال سنة إلى غيرها، فإن ذلك معنى من الحيل قد انتبهنا له، وأمرنا أصحاب الدواوين أن لايقبلوا من العمال إلا اتصال ما لكل سنة عند انقضائها، فمن عجز عن الوفاء في أول سنة كان عنه في التي تليها أعجز، وتلافي النظر في الأول أحق من النظر في أدبار الأمور»[2].

وتركزت جهود جوذر على العمل التجاري، ومع هذا امتلك بعض المنازل مع ضيعة، واستغل ذلك، وقد حاول أحد عمال المعز لدين الله واسمه حمزة بن صلوك أن يفرض عليه، أو بالحري أن يحصل منه بعض الضرائب، فكتب جوذر بهذا إلى المعز، فأصدر تعليماته بالتأكيد على إعفاء جوذر وأمر بكتابة منشور له بهذا الاعفاء[3].

أبرز رجالات دولة المعز لدين الله:

ومن الواضح أن جوذر كان من أبرز رجالات الدولة الفاطمية أيام المعز، ويمكن أن نذكر إلى جانبه جوهر القائد من الصقالبة، والقاضي النعمان، ويعقوب بن كلس، وقد وقع الأختيار على هؤلاء من شخصيات الدولة دون سواهم، لأن كل واحد منهم شغل من جانبه دوراً هاماً جداً،

---

(١) سيرة جوذر ص ٩٥.

(٢) سيرة جوذر ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) سيرة جوذر ص ٩٩.

فجوذر من الجانب الإداري في المهدية وسواها، وجوهر من الجانب العسكري في المغرب ومصر والشام، وكان القاضي النعمان لسان الدعوة والدولة وفقيهها وكاتبها وقاضيها، أما يعقوب فقد فهم مكانه المسألة المالية لدى المعز، مع مسألة الدعوة، فأبدع ـ وهو المختص ـ للخلافة والدعوة الإسماعيلية نظاماً إدارياً ودعوياً مكن فيه الخلافة من العيش في مصر لمدة قرنين من الزمان.

واثنان من هؤلاء الأربعة، وهما: جوهر الصقلبي والقاضي النعمان، قد أسسا أسرتين بارزتين، عاشتا ردحاً طويلاً من تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر، وشغلتا أدواراً سياسية وعسكرية وقضائية هامة في حياة الخلافة والخلفاء، هذا وقد تردد ذكر جوذر وجوهر والنعمان مراراً وتكراراً في أرجاء هذه الدراسة، ولتجنب التكرار، سوف نذكر ترجمة كل واحد منهم باختصار، هذا من جانب، ومن جانب آخر سوف نتوسع بالحديث عن يعقوب بن كلس، حتى وإن تداخل ذلك مع الحقبة المصرية حتى يبان دوره ولا يكون هناك انقطاع في استيفاء المهم من أخباره.

القائد جوهر:

سوف يكون من الصعب كثيراً الحديث عن القائد جوهر الصقلبي دون الوقوع بالتكرار، ولعله يكفي القول بأن الرقيق الأبيض قد كثر تداوله في الأندلس وفي المغرب، وكان جل الرقيق البيض من الصقالبة، وكان كثير من الغلمان يتعرضون لعمليات الخصي، للعمل في قصور الحكام ولعدم التحرج بوجودهم بين أوساط الحريم، وبعضهم الآخر كانوا يتعرضون لفنون التدريبات والتعليم، فإذا نجح أحدهم التحق بصفوف أحد الحكام، وقد يتدرج بالمناصب إلى أعلاها كما كان حال جوهر، أما من

فئة الخصيان فلدينا الأستاذ جوذر، ومع تجارة الرقيق من الذكور راجت تجارة الإناث رواجاً عظيماً، لأن المرأة السلافية تمتعت بالجمال والبياض وامتلاء الجسم ورشاقته، وقد قال ابن حوقل: «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كاللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم، وأكابر رجالهم، وولدن غير سلطان عظيم»[1].

وكان الذي اشترى جوهر واحد من عبيد الدولة الفاطمية اسمه صابر، ثم انتقلت ملكيته إلى خادم آخر اسمه خيران، وبعده إلى ثالث اسمه خفيف «وحمله خفيف إلى الإمام المنصور بالله ع.م، فعلا ذكره معه، وسايره في غزواته وكان كاتبه، وكاتب أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م، ثم انتهى به الحال إلى أن بلغ مع المعز لدين الله، سلام الله عليه، الرتبة الجليلة، والمنزلة السنية، وآخى بينه وبين جوذر، وقرن بينهما لفضلهما، ودينهما، وآمانتهما، ومودتهما للأئمة ع.م، ونصيحتها، وجعل جوهر قائد القواد، وسيره في عساكره، وأمراء جنوده، واستفتح البلاد...»[2].

هذا وترجم المقريزي في كتابه المقفى الكبير لجوهر فقال: «جوهر بن عبد الله، القائد، أبو الحسن الصقلبي الرومي الكاتب، مولى المعز لدين الله أبي تميم معد، ولد سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وصار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر، ثم انتقل إلى خادم لهم يقال له خيران، ثم إلى خادم يقال له خفيف، فأهداه خفيف إلى الإمام المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل، فحمله إلى ابنه الامام المعز لدين الله وهو صغير، فرباه حتى بلغ مبالغ

---

(١) صورة الأرض ص ٩٥.

(٢) عيون الأخبار ـ السبع السادس ص ٨٣.

الرجال في خدمته، وكناه بأبي الحسن، ورقاه في الخدم إلى أن قام في الخلافة بعد أبيه»[1].

هذا والفوارق بين ضبط الأسماء في نص الداعي ادريس والمقريزي، مرده إلى ضعف محقق كتاب الداعي ادريس وعجزه في كل ما نشره عن ضبط النصوص التي تعامل معها، وبعد هذا التعريف الذي قدمه المقريزي لجوهر، ذكر أدواره العسكرية ومهامه في بلدان المغرب ثم تحدث عن حملة مصر ونجاحه بها، وتأسيسه لمدينة القاهرة، وارساله جعفر بن فلاح إلى الشام، ثم صدامه مع القرامطة، وقدوم المعز لدين الله إلى مصر، ثم بعد وفاة المعز ندبه من قبل الخليفة العزيز لإعادة الاستيلاء على الشام، واخفاقه بشكل مهين، مما دعا إلى عزله واعفائه من مناصبه، وبعد هذا «لم يزل جوهر بالقاهرة إلى أن مات يوم الخميس لاحدى عشرة بقيت، وقيل بل مات لسبع بقين من ذي الحجة سنة احدى وثمانين وثلاثمائة، فبعث العزيز بالله إليه بالحنوط والكفن، وبعث إليه الأمير المنصور بن العزيز، وبعثت إليه السيدة العزيزة أيضاً، فكفن في سبعين ثوباً ما بين مثقل، ووشي مذهب، وصلى عليه العزيز.

وكان له من الولد: حسين، وحسن، وأبو أحمد جعفر، فأما الحسين بن جوهر فإن العزيز خلع عليه وجعله في مرتبة أبيه... وأما حسن فإنه مات بالمغرب، وصلى عليه المعز لدين الله في سنة ستين وثلاثمائة، وأما أبو جعفر فبعثه أبوه من القاهرة إلى المغرب بهديه»[2].

---

(١) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢١.

(٢) زكار ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢١ ـ ٣٤٤.

obeikandl.com

الأستاذ جوذر:

لحسن الحظ أن ذكر هذه الشخصية الهامة قد حفظ لنا من خلال سيرة شخصية له كتبها أحد المقربين منه، وهذه السيرة كتاب وثائقي هام جداً، عرفنا من خلالها أنَّ الأستاذ جوذر كان من العبيد الخصيان الصقالبة، دخل في خدمة الخليفة المهدي، ثم منحه المهدي إلى القائم، فأخلص للقائم اخلاصاً عظيماً ولأسرته، ووقف إلى جانبها ضد أفراد أسرة المهدي، وفي ظل القائم ظهرت إمكاناته وقدراته وإخلاصه، فأسند إليه مهام إدارية عالية، ووثق به كثيراً، وبرهن جوذر أنه جدير بالثقة، حافظ للأسرار، ولهذا عندما حضرت المنية القائم أوصى ابنه المنصور إسماعيل حيث قال له: «وديعتي عندك جوذر المسكين ولايذل بعدي»[1].

واعتمد المنصور إسماعيل على جوذر كثيراً، وكان وقت استلامه للسلطة عصيباً بحكم استعار أوارثورة، صاحب الأتان - أبي يزيد مخلد بن كيداد، ووصل اعتماد المنصور عليه إلى درجة أننا نشعر من خلال سيرته أنه صار بمثابة «الحاكم العام على البلاد كلها نيابة عن الإمام»، وبعد القضاء على ثورة صاحب الأتان منحه المنصور إسماعيل لقب «مولى أمير المؤمنين»، وأمر باثبات اسمه على الطرز والبسط، وصار يحمل على فرس من مراكب الإمام، كما سمح له بالجلوس الى مائدة المنصور إسماعيل[2].

وبعد انتقال المنصور إسماعيل إلى صبرة المنصورية خارج

---

(١) سيرة جوذر ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣.

القيروان، بقي جوذر في المهدية مشرفاً على قصورها، مع صلاحيات واسعة جداً[1].

وإثر وفاة المنصور وتسلم المعز للخلافة ترسخت أكثر مكانة جوذر، ونقرأ في سيرته عدداً كبيراً من المراسلات بين المعز لدين الله وجوذر، وهذه المراسلات هامة جداً ووثائق من الدرجة الأولى، وكنا قد عرضنا لأدوار جوذر في أيام المعز لدين الله، ولدى اتخاذ المعز قراره بالذهاب إلى مصر، طلب منه جوذر، وكان قد تقدمت به السن كثيراً، أن يسمح له باصطحابه، فسمح وسط رعاية خاصة، وقبل الوصول إلى مصر توفي جوذر، وبذلك فقد المعز لدين الله، وفقدت الخلافة الفاطمية واحداً[2] من أركانها.

القاضي النعمان:

يرتبط تاريخ الفكر الإسماعيلي الفاطمي في المرحلة الإفريقية بشخصية القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، الذي كان من أهل القيروان، وقيل كان في البداية مالكياً ثم التحق بالمذهب الإسماعيلي، وقيل لابل كان شيعياً إمامياً ثم تحوّل إلى الإسماعيلية وعلى هذا الأساس قال عنه ابن العماد الحنبلي لدى ذكره له بين وفيات سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م: «وبها النعمان بن محمد بن منصور القيرواني، القاضي أبو حنيفة الشيعي ظاهراً، الزنديق باطناً، قاضي قضاة الدولة العبيدية... مات بمصر في رجب، وولي بعده ابنه[3]».

وقبل ابن العماد، ذكره ابن خلكان بقوله: «أحد الأئمة الفضلاء،

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٢ـ١٤٨.

(٣) شذرات الذهب ج٢ ص٤٧.

obeikandl.com

المشار إليهم وكان مالكي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية»[1]، ومثل ابن خلكان قال عنه ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني: «كان مالكياً، ثم تحول إمامياً، وولي القضاء للمعز العبيدي، صاحب مصر، وصنف لهم التصانيف على مذهبهم، وفي تصانيفه ما يدل على انحلاله»[2].

وتعليلاً لتلقبه بابي حنيفة، ولتسميه بالنعمان، وهو اسم ولقب إمام مدرسة أهل العراق الفقهية نجد ابن تغري بردي يقول: «قاضي مملكة المعز، وكان حنفي المذهب، لأن المغرب كان يومذاك غالبه حنفية، إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط، المعز بن باديس[3]».

هذا وتاريخ ميلاد القاضي النعمان غير معروف، وسنحاول استخراجه تقديراً، آخذين بعين التقدير أن الرجل قد عمر، وتوفي عن سن عالية، ثم إنه على الرغم من كثرة الذين ترجموا له وكتبوا عنه[4]، يبقى أفضل مصدر عن حياته في ظل الفاطميين، لاسيما أيام المعز لدين الله، كتابه المجالس والمسايرات:

فقد ذكر القاضي النعمان أنه دخل أوَّل ما دخل في خدمة الخلفاء الفاطميين، كان في أيام المهدي المتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م حيث قال: «وخدمت المهدي بالله من أواخر عمره تسع سنين وشهوراً وأياماً»[5]. وعلى هذا دخل في خدمة المهدي في سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، ونفترض أن سنة كان آنذاك في حدود العشرين، فعلى هذا كان تاريخ ولادته سنة

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٤١٥.

(٢) لسان الميزان ج٦ ص١٦٧.

(٣) النجوم الزاهرة ج٤ ص١٠٦.

(٤) أصدرت دار الكتب الوطنية في تونس سنة١٩٧٥ كتيباً فيه أسماء ما كتب عن القاضي النعمان.

(٥) المجالس والمسايرات ص٦٩.

٢٩٢هـ/٩٠٥م، أو لنقل: ولد القاضي النعمان في العشر الأخير من سنوات القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وبعد وفاة المهدي تابع القاضي النعمان عمله في ظل الخليفة القائم بأمر الله أبي القاسم محمد المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وقال واصفاً عمله لدى كل من المهدي و«القائم بأمر الله من بعده (ﷺ) أيام حياته في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طوال تلك المدة إلاّ أقل الأيام، وكان لهما صلوات الله عليهما من النعم والفضل عليّ في ذلك ما لا أحصيه عدداً»[١].

وليس من الواضح تماماً مقصده «بالحضرة»، لكن ذكر النعمان أنه في أيام المهدي ثم القائم كان يورق لابنه المنصور إسماعيل حيث قال: «وكانت خدمتي إياه في جمع الكتب له وانتساخها فلما قبض القائم صلوات الله عليه استقضاني قبل أن يُظهر أمره، وكنت أول من استقضاه من قضاته وأعلى ذكري»[٢].

وعلى هذا تسلم النعمان أعمال القضاء في الخلافة الفاطمية منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وفي أيام المنصور إسماعيل نفسه استقضاه على مدينة طرابلس، ولاندري كم من المدة أمضى في طرابلس، إنما من المعروف أن المنصور إسماعيل ترك المهدية، وابتنى نفسه صبرة المنصورية خارج القيروان، وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، ولدى سكناه في المقر الجديد أصدر أمره إلى النعمان للقدوم من طرابلس، وتحدث النعمان عن قدومه إلى المنصورية بقوله: «فلما أشرفت على المنصورية واجهت المعز لدين الله صلوات الله عليه خارجاً لبعض ما كان يخرج إليه في موكب ضخم»، وسلم النعمان على المعز وقبل يده بعد تقبيل الأرض

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٩.

(٢) المصدر نفسه ص٨٠-٨١.

obeikandl.com

بين يديه، فخاطبه المعز بقوله: «قدمت خير مقدم، وبارك الله فيك، وجزاك خيراً عن نفسك، فقد انتهى إلينا خبرك، سر راشداً إلى باب أمير المؤمنين»، وعندما مثل بحضرة المنصور إسماعيل رحب به بحرارة[1]، وخلع عليه، وأمره ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ «بالسير من يومي إلى المسجد الجامع بالقيروان، وإقامة صلاة الجمعة فيه والخطبة، إذا لم يكن يومئذ بالمنصورية جامع، وأمر بجماعة من خاصة بوابي القصر الأعظم بالمشي، بين يدي بالسلاح إلى أن صليت فانصرفت.

ثم خرج توقيعه من غد إلى ديوان الرسائل بأن يكتب لي عهد بالقضاء بمدن: المنصورية، والمهدية، والقيروان، وسائر مدن إفريقية وأعمالها»[2].

وفي أيام المنصور إسماعيل قويت علاقة النعمان بالمعز لدين الله وتمتنت كثيراً، مما مهد لدوره العظيم أيام هذا الخليفة، وقال القاضي متحدثاً عن علاقته بالمعز لدين الله أيام المنصور إسماعيل: «وكان اعتمادي أيام المنصور بالله (صع) فيما أحاوله عنده وأرفعه إليه، وأطالعه فيه، على المعز لدين الله (صع) فما أردته من ذلك بدأته به ، ورفعته إليه، وسألته حسن رأيه فيه، فما أمرني أن أفعله من ذلك، فعلته، وما كرهه لي، تركته، فكان لي في ذلك رفد عظيم، وفرح كبير، ولم أكن أعمل على رأيه إلاّ ظهرت لي بركته والسعادة فيه، ولم ينهني عن شيء فتركته، إلاّ تبين لي بعد ذلك عيبه[3]».

وارتفت مكانة القاضي كثيراً بعد ما تسلم المعز لدين الله الخلافة:

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥١.

«وإزداد في أوان المعز لدين الله ع.م سمواً وعلواً، وقرباً منه، ودنواً، وجعله ع.م: قاضي القضاة، وأضاف إليه الدعوة، مأسماه في مراتب الدعاة إلى أسمى ذروة، وجعل إليه إزالة المظالم وأمضى حكمه على قول كل حاكم، وأمره بقراءة ما كتبه الأئمة من آبائه، ونشر علومهم على أتباعه وأوليائه، وأن يرتبهم على مراتبهم، ويوليهم من منن ولي الله بحسب علومهم، وما هو واجبهم»[1].

وارتبط سجل حياة وأعمال القاضي النعمان في أيام المعز لدين الله بإمامه، ومن خلال ما كتبه القاضي في المجالس والمسايرات أمكن الوصول إلى تصور وثائقي لعصر المعز لدين الله ولما حدث في أيامه، هذا وصنف النعمان كثيراً من الكتب الهامة جداً، وكتبه يمكن تصنيفها إلى نوعين: صنف في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية، وقسم أوسع في بنيان الدعوة وفقهها وعقائدها ظاهراً وباطناً، وهو «إنما ألف ما ألف، وجمع ما جمع، وصنف مما أخذه عن أئمته الذين عاصرهم، مما ألقاه إليهم آباؤهم الطاهرون، صلوات الله عليهم أجمعين، ولم يؤلف تأليفاً ولاجمع كتاباً حتى عرضه عليهم شيئاً فشيئاً، فأثبتوا الثابت منه والصحيح، وقوموا الأود بالتصحيح، ومن بحرهم اغترف، وبهم عرف ما عرف، وبفضلهم فيما ألف وصنف اعترف»[2].

وذكر القاضي النعمان أنه ألف: مائتين وعشرين كتاباً، وصل إلينا جلها وأهمها[3]، وقد نشر معظم ما وصلنا من كتبه، وقبل الحديث عن المهم بالنسبة لنا من كتبه علينا أن نذكر أن النعمان نظم بعض مؤلفاته

---

(١) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٤٢ ـ ٤٩.

رجزاً، مثلما فعل بالأرجوزة المختارة التي حوت عرضاً لتسلسل الأئمة واحداً إثر آخر حتى المهدي وتأسيس الخلافة الفاطمية.

ويأتي على رأس كتبه التاريخية كتاب «رسالة افتتاح الدعوة وانشاء الدولة»، وقد أرخ فيه من وجهة نظر رسمية للدعوة الإسماعيلية حتى أيام المهدي، وعلى الرغم من رسميته هو مصدر هام جداً لايمكن لأي باحث في التاريخ الإسلامي الاستغناء عنه[1].

هذا بالنسبة لتاريخ الحركة الإسماعيلية حتى تأسيس الخلافة الفاطمية، أما بالنسبة للمرحلة الإفريقية بشكل عام وأيام المعز بشكل خاص، فأهم مصدر على الاطلاق هو المجالس والمسايرات، ويبدو أن المؤلف جعله في جزأين، غير أنه نشر في مجلد واحد[2]، وحكى النعمان ملابسات تصنيفه لهذا الكتاب ودوافعه، مما يبين أهميته الوثائقية حيث قال: «ولقد كنت جمعت عن المهدى بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، صلوات الله عليهم ورحمته وبركاته، وفيهم وفي فضائلهم، من الكتب ما يطول ذكرها، وألفت سيرة المعز لدين الله صلوات الله عليه، من الوقت الذي أفضى الله عز وجل بأمر الإمامة إليه إلى اليوم، وأنا دائب في ذلك إلى أن ينقضي عمري، إن شاء الله تعالى، ويصلها من بعدي من عقبي، وأعقابهم بتوفيق الله إياهم، بطول بقاء وليه، ودوام عزه وسلطانه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ثم رأيت وجوهاً من الحكم والعلم والآداب والمعرفة تنفجر من منطقة، وتندفع من ألفاظه، وتشير عن رمزه وإشارته، ولا تجري مجرى السير التي

---

(١) نشر أولاً في بيروت بتحقيق وداد القاضي سنة ١٩٧٠ ثم في تونس سنة ١٩٧٥ بعناية فرحات الدشراوي.
(٢) نشر محققاً في تونس سنة ١٩٧٨.

صنفتها، ولا تدخل في أبوابها التي ألفتها، على ما في تلك السير من الحكمة والعلم والمعجزات والبراهين والدلائل والآيات، فرأيت إفراد هذه في كتب تشبهها، وتليق بها، وأن أفرد السير في كتابها مع ما شاكلها وكان من معناها، وأن أذكر في هذا الكتاب ما سمعته من المعز صلوات الله عليه من حكمة وفائدة وعلم ومعرفة، عن مذاكرة في مجلس، أو مقام أو مسايرة، وما تأدى إليّ من ذلك عن بلاغ أو توقيع أو مكاتبة، على تأدية المعنى دون اللفظ حقيقة بلا زيادة ولا نقص، بعد بسط العذر في التخلف عن تأدية حقيقة لفظة بحسبه، إذ هو الجوهر الذي لا يتعاطى البشر صنعته»[1].

وأرخ القاضي النعمان للتشيع بشكل عام حتى أيام الامام السادس جعفر بن محمد بكتاب نشر في ثلاثة أجزاء[2] بعنوان: «شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار». هذا وأهم كتب النعمان الفقهية هو كتاب «دعائم الإسلام»، صنفه باسلوب جيد في الفقه الإسماعيلي، وجعله في سبعة دعائم هي: الولاية، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، وهو بذلك ألغى من أركان الإسلام: الشهادة، وأضاف: الولاية، والطهارة، والجهاد، ثم ألف لهذا الكتاب الظاهري الشكل تأويلاً، وأتبع التأويل بتأويل آخر للتأويل[3]، وما دمنا بصدد التأويل، إن أهم كتاب في هذا الباب هو الرسالة المذهبة في الحكمة والتأويل»، التي نشرنا بعضها للمرة الأولى في ملاحق دراستنا هذه، وما نشره عارف تامر سنة ١٩٥٦ باسم الرسالة المذهبة ضمن خمس رسائل إسماعيلية، عمل آخر، ليس له الأهمية ذاتها.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) نشر بقم في ايران سنة ١٤٠٩ هـ.ق.

(٣) نشر في القاهرة من قبل دار المعارف.

وفي الحقيقة في كل واحد من كتب القاضي النعمان ما يفيد الباحث في التاريخ الإسماعيلي والفاطمي، والتعمق فيها يحتاج إلى أكثر من مؤلف، ولعله يكفي ونحن نختم حديثنا عن القاضي النعمان ومؤلفاته العقائدية، أن ننوه بأهمية كتابه «الهمة في آداب أتباع الأئمة». وعنوانه يدلل على محتوياته[1].

يعقوب بن كلس:

شغل اليهود أدواراً هامة في الحياة الاقتصادية والإدارية المالية لبعض الدول الإسلامية، وكانت أدوار أهل الذمة من يهود ونصارى هي الحاسمة والأساسية في حياة الخلافة الفاطمية في مصر من النواحي الادارية المالية مع شغل منصب الوزارة، الذي استحدث للمرة الأولى في مصر، وشغله واحد من أصل يهودي أعلن عن دخوله في الإسلام لكن قيل بأنه حافظ على يهوديته وظل مبطناً لها.

واسم هذا اليهودي: أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كِلّس، ترجم له علي بن منجب الصيرفي المصري الذي تولى ديوان الإنشاء على عهد الآمر بأحكام الله من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٣م حتى سنة ٥٣٦هـ/١٤٤١م بعد الآمر فقال: «كان يهودياً كاتباً صائناً لنفسه، محافظاً على دينه، جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه، واتصل بخدمة كافور الأخشيدي، فحمد خدمته ورد إليه زمام ديوانه بالشام ومصر فضبطة على حسب إرادته.. أظهر إسلامه وبلغ خبره إلى كافور» فخلع عليه خلعة الوزاره «وسار إلى الغرب، وخدم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه، وخص

---

(١) طبعه محققاً محمد كامل حسين في القاهرة.

obeikandl.com

بخدمته، وتولى أموره»[1].

هذا من جانب، وترجم له من جانب آخر ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال: «كان يهوديا من أهل بغداد خبيثا، ذا مكر ودهاء، وفيه فطنة وذكاء، وكان في قديم أمره خرج إلى الشام، فنزل الرملة، وصار بها وكيلاً، وكسر أموال التجار، وهرب إلى مصر، فرأى منه كافور الأخشيدي فطنة وسياسة، ومعرفة بأمر الضياع بمصر، فقال: لو كان مسلما يصلح أن يكون وزيراً.

وطمع في الوزارة فأسلم يوم جمعة في جامع مصر، فلما عرف الوزير ابن حنزابة (جعفر بن الفضل ابن الفرات) أمره، قصده، فهرب إلى المغرب، واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز، فلما هلك الملقب بالمعز وقام ابنه الملقب بالعزيز استوزر ابن كلس في سنة خمس وستين وثلاثمائة، فلم يزل مدبراً أمره إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة»[2].

كما ترجم ابن خلكان له في كتابه وفيات الأعيان[3] حيث جمع بين ما أورده ابن الصيرفي وابن عساكر، هذا وهناك مواد مباشرة وغير مباشرة حوله في وثائق الجنيزا، كما اتى الداعي إدريس القرشي على ذكره في السبع السادي من عيون الأخبار[4] وفنون الآثار، فكان مما قاله حوله: «وكان هذا الوزير يعقوب في ابتداء أمره، على ما ذكره الرواة، من أهل ملة موسى ودين اليهودية، وهو من أولاد هرون بن عمران، ثم أسلم

---

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٩٢ ـ ٩٤.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٥٣.
(٣) وفيات الأعيال ج٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(٤) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢.

أيام كافور الأخشيدي، فحسن إسلامه، وكان ذا فطنة وذكيا، وكان له تفنن في علم التوراة وغيرها من العلوم.. ثم هاجر إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م إلى أرض المغرب، ولم يزل يسمو صعدا، ويزدلف علواً مع أولياء الله أهل الهدى، وعاد مع المعز لدين الله ع.م حين قدومة إلى مصر، فارتفع عنده في الفضل والقدر، حتى جعل المعز لدين الله ع.م له النظر في الوزارة مع عسلوج ابن الحسن في بقية أيام المعز لدين الله ع.م... وجعل المعز لدين الله ع.م أيضاً إلى هذا الوزير يعقوب بن يوسف النظر في الأموال، والافتقاد لها والانتقاد»[1].

وقال الداعي إدريس في مكان آخر بعد ايراده لقصيدة نظمها تميم بن المعز لدين الله مدح فيها ابن كلس وأشاد به في أكثر من بيت منها: «وكان يعقوب الوزير عند إمامه مقرباً مكرماً معززاً مقدماً، ولع أخلاق سنية وسيرة صالحة، وأعمال رضية، وحسن سياسة وعدل، ومكارم ظاهرة، وفضل وعلو همة، مقتفياً في فعله لآثار الأئمة، متأدباً بآدابهم، مجهداً نفسه في سلوك منهجهم، واقتفاء آثارهم، محباً للعلم، مؤثراً لأهله، مقدماً لهم في قوله وفعله»[2].

وزادنا الداعي إدريس معرفة بيعقوب وأدواره الجديد في حياة الخلافة الفاطمية عقائدياً أيضاً: «وللوزير يعقوب مصنف في الفقه يسمى «مصنف الوزير» ابتدأ فيه بذكر الطهارة ثم الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وسائر أبواب الفقه، الواجبات على مذهب الأئمة من آل رسول الله عليهم أفضل السلام، وأسنى الصلاة، اقتفى فيه فعل القاضي النعمان»[3].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(٢) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٢.

وذكر حتى الآن الداعي إدريس الدورين المالي والعقائدي ليعقوب بن كلس، ثم زاد فقال: «وعمل الوزير يعقوب بن يوسف على شراء العبيد الأتراك والسودان، وأسكنهم خلف دار الوزارة. ويسمى به الموضع الذي أسكنهم فيه حافة الوزارة، وأضاف إليهم كثيراً من العسكرية، وقال: إن تغيرت الكتامية فمن ذا الذي يكسر شوكتهم، ويفل حدهم؟»[1].

وفي الحقيقة إن كثرة المواد الاخبارية حول هذه الشخصية، مع ما حملته مواد الجنيزا من إشارات واضحة إلى احتفاظه بيهوديته، تستحق أن تكون موضوع بحث خاص، ويعجب الإنسان كيف تمكن هذا اليهودي المتفنن «في علم التوراة» خلال وقت قياسي قصير أن يصير الفقيه المعتمد للعقيدة الإسماعيلية؟!

ويجد الباحث جواباً لهذا السؤال في التركيبة التي نشأ عليها اليهود في العصور الوسطى في أوربا، وأيضاً في التاريخ الإسلامي منذ استيلاء الفاطميين على مصر حتى نهاية حكم الأسرة الإيلخانية المغولية في تبريز[2].

ومما لا شك فيه أننا نواجه في يعقوب بن كلس واحداً من الشخصيات الاستثنائية، فبعد ما ولد في وسط يهودي ونشأ فيه، برهن وهو يهودي عن إمكانات بالتلون والانتهازية غير عادية، أوصلته أخيراً إلى إعادة تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر إدارياً، ومالياً وعسكرياً ودعوياً عقائدياً.

فهو قد ولد من أبوين يهوديين في بغداد سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م[3]، وبعدما تعلم في بغداد وتدرب غادر العراق برفقة والده حيث استقر

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤١.

(٢) انظر بابوات من الحي اليهودي ليواكيم برنز ـ ط. دمشق ١٩٨٣. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية لوترفيشل ـ ط. بيروت ١٩٨٨.

(٣) ابن خلكان ج٢ ص ٤٤٣.

بالرملة، وهناك ربما شرع يعقوب بالعمل للمرة الأولى في حياته، ويرجح أنه شغل نفسه في السمسرة والوكالة للتجارة، وأن الحظ خانه فعجز عن الوفاء بالتزاماته، فهرب من الرملة إلى مصر الإخشيدية في ظل كافور، ولكي يأمن على نفسه ويحول دون الملاحقة القانونية له كتب «إلى كافور رقعة فيها: إن بالرملة عشرين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه، وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك، وأنفذ معه البغال لحملها، وورد الخبر بموت بكير بن هرون التاجر، فجعل إليه النزر في تركته، واتفق موت يهودي بالفرما ومعه أحمال كتان، فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار، فباع الكتان، وحمل الجميع وسار إلى الرملة، فحفر الدار، وأخرج المال وهو عشرون ألف دينار، ووجد ثلاثين ألف دينار.

فازداد محله في قلبه، وتصوره بالثقة، ونظر في تركه ابن هرون، واستقصى وحمل منها مالاً كثيراً، ثم وافى وقد زاد حاله عنده فأرسل إليه صلة كبيرة، فأخذ منها ألف درهم، وردّ الباقي، وقال كفايتي، فزاد أمره عنده حتى أنه كان يشاوره في أكثر أموره، وكلما رفع إليه حساب، أمر بدفعه إليه يتأمله»[1].

ونتيجة لوضعه الجديد لدى كافور لم يعد هناك من يخشى يعقوب منه من بين التجار، وأهم من هذا كله حصل على تصور كامل بالوضع الاقتصادي والضرائبي لمصر، ويرجح أنه قام بزيارات إلى المناطق المصرية والأرياف فعرفها عن قرب، فصار بذلك الخبير الأول بأحوال مصر، مما كان له الأثر الحاسم على نجاح جوهر في مهامه التأسيسية، وبعد ذلك في سرعة تمكن المعز لدين الله من توطيد أركان حكم أسرته

---

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٣ ـ ٩٤. وفيات الأعيان ج٢ ص ٤٤٢.

الغريبة من جميع الجوانب، في مصر.

وقبل الاستطراد أكثر لنبق معه في ظل كافور، فقد علا شأنه كثيراً لدى كافور، وعرف أن حاكم مصر يريد أن يستوزره حيث قال: «أي وزير بين جنبيه»، وتاقت نفس ابن كلس إلى السلطان «وتطلعت للوزارة»، لذلك بادر «فنزل الجامع وصلى الغداة جماعة» وكان ذلك في سنة ٣٥٠هـ/٩٦٢م «وبلغ خبره إلى كافور فسره ذلك، وعاد من الجامع إلى دار كافور فخلع عليه غلاله، ومبطنه ودراعة وعمامة»، وجعله وزيراً[١].

وعلى الرغم من نجاح هذه المسرحية، فإن ابن كلس كسب عداوة الوزير ابن الفرات، الذي كان يتطلع إلى الوزارة، ومات كافور، وتمكن ابن الفرات من السلطة، وكان مدعوماً من الجند ومن رجال الإدارة، لذلك هرب ابن كلس، والتحق بالمعز لدين الله ليزوده بكل ما احتاج إليه من معلومات عن مصر، مما ساعد على نجاح حملة جوهر، والاستيلاء على الفسطاط[٢] وبناء القاهرة. ويرجح أن ابن كلس بقي في المغرب خمس سنوات، ومع أنه «عندما أصبح يعيش في ظل الحكم الفاطمي، لم يكن لعقيدته أدنى مشكلة، ذلك أنه من المشهور تسامح الفاطميين مع أهل الذمة، الأمر الذي مكن عدداً من اليهود من شغل أعلى المناصب في الدولة»[٣]، مع هذا لم يكن بإمكان يعقوب بن كلس إعلان عودته إلى اليهودية، فذلك يجعله مرتداً عن الإسلام، ويضيع عليه فرصة، لهذا احتفظ بعقيدته المعلنة، وغامر

---

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٤ ـ ٩٥. فيشل ص ٧٥ ـ ٧٧. ابن خلكان ج٢ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢. ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ج٢ ص ٤٥. أهل الذمة في مصر لسلام شافعي محمود. ط.القاهرة ١٩٩٥ ص ٤٣ ـ ٤٥. الوزارة والوزارة في العصر الفاطمي ـ ط. القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٥ ـ ٣٧ ـ ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٢. فيشل ص ٧٦ ـ ٧٨. ابن تغري بردي ج ص ٣٩٦.

(٣) فيشل ص ٧٨ ـ ٧٩. أهل الذمة في مصر ص ٢٧ ـ ٣٥.

بالدخول إلى الإسماعيلية فتعرف إليها ظاهراً وباطناً، وساعد المعز لدين الله على اتخاذ قراره الحاسم بإرسال حملته بقيادة جوهر إلى مصر[1].

وجاء ابن كلس مع المعز لدين الله إلى مصر، بعد غياب خمس سنوات، فعهد إليه المعز لدين الله بترتيب الإدارة المالية لمصر، وأعاد النظر بما كان جوهر الصقلبي قد اتخذه من إجراءات، فقد ألغى يعقوب بن كلس التعامل بالنقود العباسية، وضرب الدينار المغربي، وتعاون الصرافون اليهود في مصر معه، ونجم عن الإجراء الذي اتخذه خسائر كبيرة لعامة الناس، ولكن جاء ذلك لصالح الدولة وخزانتها، فقد كان المعز لدين الله قد انفق كثيراً من الأموال على حملة مصر، وكان يتوقع أن يجد خزائن سلطات مصر مليئة، فوجدها فارغة، كما أن نفقات الاستيلاء على بلاد الشام والحروب ضد القرامطة كانت كبيرة جداً، وعلى العموم تمكن المعز لدين الله بوساطة يعقوب بن كلس من ملء بيت ماله[2].

ولن نستطرد أكثر في الحديث عن يعقوب بن كلس في مصر بعد وفاة المعز لدين الله، ويكفي أن ننقل عن الداعي إدريس، أنه صار في أيام العزيز بن المعز لدين الله: «سيد الوزراء، ورأس العلماء، وحكيم الحكماء»، وقد خدم العزيز مدة اثنتي عشرة سنة أي حتى تاريخ وفاته سنة ٣٨٠هـ/٩٩١م، وكان ابن كلس قد استعان بإدارته في مصر والشام بموظفين يهود، حتى أن الطابع اليهودي ظل مسيطراً على الحياة الإدارية والمالية للخلافة الفاطمية مما دفع واحداً من الشعراء المصريين إلى القول:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

---

(١) ابن تغري بردي ج٢ ص ٣٩٦. فيشل ص ٧٩.

(٢) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١. فيشل ص ٨١ ـ ٨٣.

العـــز فيهـــم والمـــال عندهـــم ومنهـــم المستشـــار والملـــك
يـا أهـل مصـر إنـي نصحـت لكـم تهـودوا قـد تهـود الفلـك[1]

وقد ورد في تاريخ يهودي اسم مصنفه أحمأز بن بلطيل ذكر حاخام يهودي اسمه بلطيل بن شفاطيا، كان مقرباً من المعز لدين الله وحائزاً على ثقته، واتفق الباحثون الذين تعرضوا للبحث في مواد تاريخ أحمأز بن بلطيل، على أن شخصية الحاخام بلطيل بن شفاطيا شخصية تاريخية عرفت بالمصادر العربية باسم آخر، ونحن في البحث عن شخصية يهودية كانت مقربة من المعز لدين الله لانجد غير شخصية يعقوب بن كلس، وقد دعم هذا وثيقة يهودية جرى نشرها من قبل يهودي اسمه ماركس، أشارت «عرضا إلى ابن لبلطيل اسمه يعقوب» مما دفع ماركس نفسه إلى القول: «إنني أرى بلا تردد أن يعقوب بن بلطيل هو الوزير يعقوب بن كلس..».

ونظراً للمسحة شبه الاسطورية المسيطرة على تاريخ «أحمأز بن بلطيل»، واعتماداً على بعض الإشارات التي جاءت في وثائق الجنيزا إلى ابن كلس تحت اسم «الأخ يعقوب»، ولأنه لا فرق إن كان اسمه غير العربي بلطيل أو يعقوب بن بلطيل[2]، الذي يعنينا حمله للقب حاخام، فهل يا ترى حافظ يعقوب بن كلس على يهوديته طوال عمله في ظل كافور ثم في ظل المعز لدين الله ومن بعده ابنه العزيز، وهو متظاهر بالإسلام؟ هذا ما يزيد في تعزيزه أن ابن كلس لم يغير اسمه ولا كنيته بعدما أعلن عن دخوله بالإسلام، وهي قاعدة اتبعت فيما مضى وما زالت متبعة حتى يوم الناس هذا! يضاف إلى هذا تذكرنا ما قيل عن أنه كان من أبناء هرون، وأبناء هرون كانوا دوماً رجالات الدين (الحاخامات) لدى اليهود.

---

(١) المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر. ط. المعهد الفرنسي بالقاهرة ص ٥. فيشل ص ٨٨ ــ ٩٤. أهل الذمة في مصر ص ٤٦ ـ ٥٩.

(٢) فيشل ص ٩٠ ـ ٩٨.

الخـــاتمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

كانت الدعوة الاسماعيلية دعوة عقائدية ذات برامج سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية، وقد تمحور العمل فيها حول شخصة الامام، الذي كان شخصية دينية مقدسة، والامام وحده امتلك حق تفسير الشريعة وتقريرها، وكان لكل امام دوره المرسوم وتكاليفه، ترجم عنه اللقب الذي حمله، والإمام هو المثل الأعلى والرمز، ومن خلال هذا الوضع تعاملنا مع عهد المعز لدين الله، ومن خلال اللقب الذي حمله ومدى التطابق بين اللقب والواقع أو لنقل بين النظرية والتطبيق يمكن أن نبني خاتمة بحثنا الذي تقدم.

والمعز لدين الله هو رابع خلفاء الدولة الفاطمية في المغرب، وهو أولهم في مصر، وحمل الخلفاء الذين تقدموه ألقاب: المهدي، والقائم، والمنصور، وقد حكموا لمدة أربع وأربعين سنة، أما هو فحكم لمدة أربع وعشرين سنة، والمهدي هو الشخصية الأسمى عند الشيعة بشكل عام، وهو عند الاسماعيلية الذي «يهدي إلى الأمر الخفي، وهو القائم بالحق،

obeikandl.com

عند حلول الوقت، بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة، بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجور بمقاليد الأمور، وهو حين يخرج، يخرج مغضباً تؤيده ملائكة الرحمن، وتسير أمامه، وتواكبه أينما تحرك، على رأسها جبريل، على فرس أبلق بسرج من نور، وعليه سرج من ذهب، وعلى جبرائيل تجافيف من نور، ومغفر من حديد، وبيده حربة من نور، وهو واقف على العقبة، في سنان الحربة النصر، وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر» ولذلك «لا تتوالى للمهدي راية إلى بلد إلاّ قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد إلاّ وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين إلى هداه، يستسلمون بأجمعهم إليه، ويكسر الصليب، ويهدم البيع، ويقتل الخنزير، وتنقضي دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً، وآنئذٍ يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه»[1].

وطبعاً لم يحقق المهدي الفاطمي أياً من هذه الوعود، ففي أيامه لم تنقض دعوة الشرك، بل ظهرت دعوة للشرك جديدة تصدى لها فقهاء المالكية وسواهم، ولم يكن هناك فرج بالمغرب الكبير بل كانت هناك محن ومعاناة، ولم تكن الدعوة بالدين لله خالصة، بل للإمام ولأفكار دخيلة على الإسلام، ولم يشرب الثور والسبع في حوض واحد، بل حاول السبع ـ وهو الآن أداة الجباية الفاطمية ـ أن يأكل الثور وأصحاب الثور، وطبعاً خلف الذئب الراعي على غنمه وتمثل الذئب الآن بالجابي الفاطمي والجندي المصادر لأرزاق الناس.

ومعروف أن كل إمام من أئمة الاسماعيلية كان مهدي زمانه، إنما مع تخصص اقتضته مرحلة حكمه، فبعد وفاة أول خلفاء الفاطميين، خلفه القائم

---

(١) الكشف لمنصور اليمن ص ٤٨ ـ ٤٩.

obeikandl.com

محمد، الذي لم يتمكن من إعلان أية نوع من أنواع القيامة، لانشغاله بثورة أبي يزيد ـ مخلد بن كيداد، وبعد القائم حمل الامام بعده لقب المنصور، لأنه حقق النصر على أبي يزيد مخلد بن كيداد، وخصوم الدولة الآخرين، وبعد المنصور جاء دور المعز لدين الله، فهل يا ترى أعز دين الله؟.

وقد يقول قائل: ما لنا ولهذا؟ المطلوب منا محصلة التأريخ لعهد المعز لدين الله، وليس اصدار الأحكام عليه، لأن اصدار الأحكام تعني خروج المؤرخ عن حياديته، وفي الحقيقة نحن هنا لا نستهدف مطلقاً اصدار حكم ما على المعز لدين الله، وكل ما نريده هو الوصول إلى أقرب النقاط من حقيقة ما حصل، وحين قلنا: فهل يا ترى أعز دين الله؟ أردنا تسجيل الحقيقة، لأننا نتعامل مع خليفة عقائدي جاء ليطبق برنامجاً عقائدياً، ولتحقيق غاية حملها لقبه وهي إعزاز دين الله.

فالذي شهدناه من خلال الدراسة أن الخلافة الفاطمية كانت أعظم دولة شيعية في التاريخ الاسلامي، وقد بلغت هذه الدولة الأوج في أيام المعز لدين الله، فهي قد حققت استقلال بلدان المغرب الكبير، وحققت بالوقت نفسه وحدته، وحاولت ادخال عناصر سياسية وعقائدية جديدة وبالتالي ادارية إلى بلدان المغرب، وقد اعتمدت على قوة مجموعة قبلية أساسية واحدة هي كتامة، لكن لم تعهد بالقيادات العليا للكتاميين بل للعبيد الصقالبة، وهنا بات الكتاميون أشبه بالمرتزقة الذين يقودهم قائد له أغراضه وأهدافه، ولكي لا يظهر التناقض بين أغراضة وأهدافه وطبائع وحاجات ومصالح كتامة، أغدق على الكتاميين المال، وغلف أهدافه وأغراضه بغلاف عقائدي وقداسة لا تقبل الجدل، لأن الإمام معصوم ومقدس وهو مصدر تأويل الشريعة وتفسيرها.

وأخفق المعز لدين الله ومن تقدمه ـ على الرغم من القداسة والعصمة ـ

وبعد مضي قرابة السبعة عقود من الزمن، وجد أن لابقاء له في المغرب الكبير، وأن عليه الرحيل، وهذا ما حدث، فهل هي يا ترى فقط ارتبطت القضية بالعمران البشري والطبائع الموروثة، أي أن بلدان المغرب الكبير حددت هويتها وربطتها بالاسلام السني الذي مثلته مدرسة أهل المدينة، أم أن المسألة تعدت ذلك؟ لقد استخدم المعز لدين الله مثل الذين تقدموه من أهل بيته السيف وصندوق الجباية، ولم نقرأ في أخباره أحاديث عن اجتذاب ودعوة لعلماء الأمة في المغرب وشعرائها، بل الذي كان هو خلوات للامام مع دعاة الدعوة الإسماعيلية الذين كان جلهم غرباء، والذي كان يتداوله مع هؤلاء هو العلم الباطني والتأويل للشريعة، ومقرر أن التأويل الإسماعيلي استهدف تعطيل الشريعة وإلغاء القرآن، وإلغاء فكرة النبوة الخاتمة وكمال الدين، ومن الممكن التعرف إلى هذا من خلال بعض فقرات الرسالة المذهبة للقاضي النعمان، ثم من خلال كتاب الهمة في اتباع الأئمة، وكذلك من خلال كتابه دعائم الاسلام، وتأويل الدعائم، وتأويل التأويل، ونجد بعد النعمان وإمامه المعز لدين الله الجواب الواضح في التراث الدرزي، حيث حل محل المصحف الشريف، «المصحف المنفرد بذاته»، الذي جاء في فاتحته: «بأمر مولانا، وبارادته العلي الأعلى... مولانا الحاكم... مولانا بك آمنا ولك أقررنا أن مصحفك هذا، نور الصراط المستقيم»[1].

وعلى هذا لم تشهد بلدان المغرب خلال العصر الفاطمي كله، وعهد المعز بالذات لا نهضة فكرية ولا عقائدية ولا عمرانية، وكما تقدم بنا القول، كان الذين نشطوا فكرياً، نشطوا في اطار الدعوة، وكانوا كلهم غرباء ـ باستثناء القاضي النعمان ـ حتى أن شاعر المعز جاء من الأندلس، وسعى الفاطميون إلى تطبيق عقيدتهم بالعنف والتنكيل، وليس بالاقناع والموعظة الحسنة، لأنهم افتقروا إلى قوة الاقناع، وعلى كل حال

(١) طبع هذا الكتاب من قبل المرحوم كمال جنبلاط، طبعة خاصة ص ٤ ـ ٦.

شهدت بلدان المغرب آنذاك محنة العلماء المالكية وسواهم، ولا شك أن الموقف الصلب لهؤلاء العلماء، مع تضحياتهم العظيمة، كانت من أعظم الأسباب في ترسيخ عقيدة أهل السنة في بلدان المغرب عامة، وهنا لم تكن القضية طبائع عمران بشري، بل مسألة قناعات توفرت لها الأسباب المتعددة لترسيخها.

والخلاصة أن العقيدة الاسماعيلية أخفقت في المغرب الكبير اخفاقاً عقائدياً شاملاً، وصحيح أنها حققت بعض الانتصارات السياسية نتيجة لأعمال عسكرية كبيرة، لكن ذلك كله لم يكتب له الديمومة وانتهى كله تقريباً مع رحيل المعز لدين الله إلى مصر، وعلى هذا أخفق المعز لدين الله في تحقيق برنامج عهده، فهو لم يعز دين الله حسب التصور الاسماعيلي، كذلك لم يعز دين الله حسب التصور الإسماعيلي، فقد عجز عن انقاذ كريت، وتعنت تجاه الأندلس وتجاه التهادن معها.

ومن المعروف أن إفريقية قد عاشت في العصر الأغلبي حقبة من الإزدهار الفكري، وكان للعلماء مكانتهم وتقديرهم حتى أن أحدهم وهو أسد بن الفرات تولى قيادة الحملة التي فتحت صقلية، وكان للرباطات المتوسطة وقتها دوراً ثقافياً وجهادياً عظيماً، لكن الآن مع وصول الفاطميين إلى السلطة تعطل دور العلماء، حيث انصرفوا إلى الجهاد معارضة للعقيدة الاسماعيلية، كما ألغى دور الرباطات المتوسطة، أو أن هذه الرباطات قد أرغمت على الانتقال إلى السواحل الأطلسية وسواها ليكون لها هناك أعظم الأدوار وأهمها.

ولا شك أن الحكم الفاطمي أيام المعز لدين الله وصل بالمؤثرات الاقتصادية على بلدان المغرب إلى الذروة، فقد أفقرت هذه البلدان بالمكوس وبحملات المصادرة والجباية، مع رأسمالية الدولة، يضاف إلى

هذا أن الحملات العسكرية الكبيرة ضد قبائل زناته، وضد كل من سجلماسة وتيهرت قد أضرت بحركة التجارة لاسيما مع بلدان السودان الغربي، ويضاف إلى هذا أيضاً أن الحروب أضرت بمدينة فا س وسواها، وأثرت على وتيرة الانتاج، واستهلكت أموالاً كثيرة، وبددت الطاقات البشرية المنتجة للمغاربة، وبناء عليه عاش المغرب كله في محنة استمرت حوالي السبعة عقود من الزمن، وبدأت بالزوال مع رحلة المعز لدين الله وأسرته إلى مصر.

ولا شك أن الآثار الاجتماعية للحروب والقضاء على زناته، ولارتحال جلّ قبائل كتامة إلى المشرق، كان عميقاً، احتاج كل من المغربين الأدنى والأوسط إلى سنين طويلة حتى تمكنا من اعادة البناء الاجتماعي الراسخ، آخذين بعين التقديرن أن إفريقية عندما حاولت الاستقلال كلياً عن الدولة الفاطمية، أرسلت السلطات الفاطمية ضدها قبائل هلال وسليم، مما أحدث زلزالاً اجتماعياً جديداً في المغربين الأدنى والأوسط وأطراف الأقصى.

وصحيح أن وحدة بلدان المغرب الكبير التي تحققت أيام المعز لدين الله لم تعش طويلاً، لكنها ضربت المثل، وقدمت السابقة لكل من المرابطين والموحدين، وليست الوحدة المغربية هي وحدها التي لم تعمر أيام المعز لدين الله، بل ضاعت في أيامه فرص التعاون مع الأندلس ضد أوربا براً وبحراً، كما أن المعز لدين الله، بدد الفرص التي تهيأت بعد معركة المجاز للبقاء في الجنوب الإيطالي، فضياع هذا الجنوب من أيدي المسلمين، شكل نقطة البداية لضياع صقلية، وطبعاً مع رحيل المعز لدين الله إلى مصر، كانت الأندلس تمر بعصر التحولات الكبرى من الاستبداد العامري، إلى دول الطوائف، واستشراء حركة الاستغلاب الصليبية في الأندلس، والتحضير الفكري والعقائدي والسياسي في أوربا الغربية للاقلاع بالحروب الصليبية الكبرى ضد بلاد الشام.

ومحزن جداً ضياع الفرص التاريخية، لاسيما من أيدي الرجال ذوي المؤهلات الكبيرة، فلاشك أن المعز لدين الله كان رجلاً هو الأعظم في تاريخ الفاطميين في المغرب والمشرق، لكن الشعور بالقداسة والعصمة، والتربية المذهبية الشاذة، جعلته يصرف مؤهلاته بالاتجاه المعاكس، ومثير للانتباه أن الدعوة الإسماعيلية، التي اتسمت بالعالمية، لم تنشط في بلدان أفريقيا، لاسيما القريبة من حدودها، وركزت جهودها فقط على دار الإسلام، وذلك على عكس المرابطين في المستقبل، حيث وزعوا نشاطهم على المغرب والأندلس، وعلى السودان الغربي، مما كان له نتائج هامة على مستقبل انتشار الإسلام في أفريقيا، ومرجح أن يكون المعز لدين الله قد عرف بتوفر الذهب في السودان الغربي، لكننا لا نعلم أنه اهتم بالعمل الأفريقي، ولعله وجد في الذهب المغربي كفايته للذهاب إلى مصر، التي خيل إليه أن خزائنها مليئة بالذهب، أو أن يعقوب بن كلس أخبره بذلك، فقد تعاون المعز لدين الله مع هذا اليهودي المخضرم، الذي أعاد له في مصر تنظيم الدولة الفاطمية إدارياً وعقائدياً وجبائياً، وبفضل هذه التنظيمات عاش الحكم الفاطمي في القاهرة لمدة تجاوزت القرنين، إنما برعاية وإشراف وزراء جلهم من أهل الذمة، وأكثريتهم من اليهود.

وفي عهد المعز لدين الله، انتقل المغرب إلى المشرق، وفي أيامه أيضاً جرى بناء القاهرة، وحدث في أيامه أنه للمرة الأولى في التاريخ أديرت بلدان المغرب كلها مع مصر والشام الجنوبي من قبل حاكم مقره في أحواز القيروان (قرطاج)، ولهذا السبب جاء البحث عن عهد المعز لدين الله بحثاً في التاريخ الإسلامي في المغرب والمشرق والأندلس، وحوض البحر المتوسط، والعلاقات مع كل من أوربا الغربية والشرقية، فأمتنا أمة واحدة، امتلكت تاريخاً واحداً، وإن تعددت الكيانات السياسية فيها وتعادت.